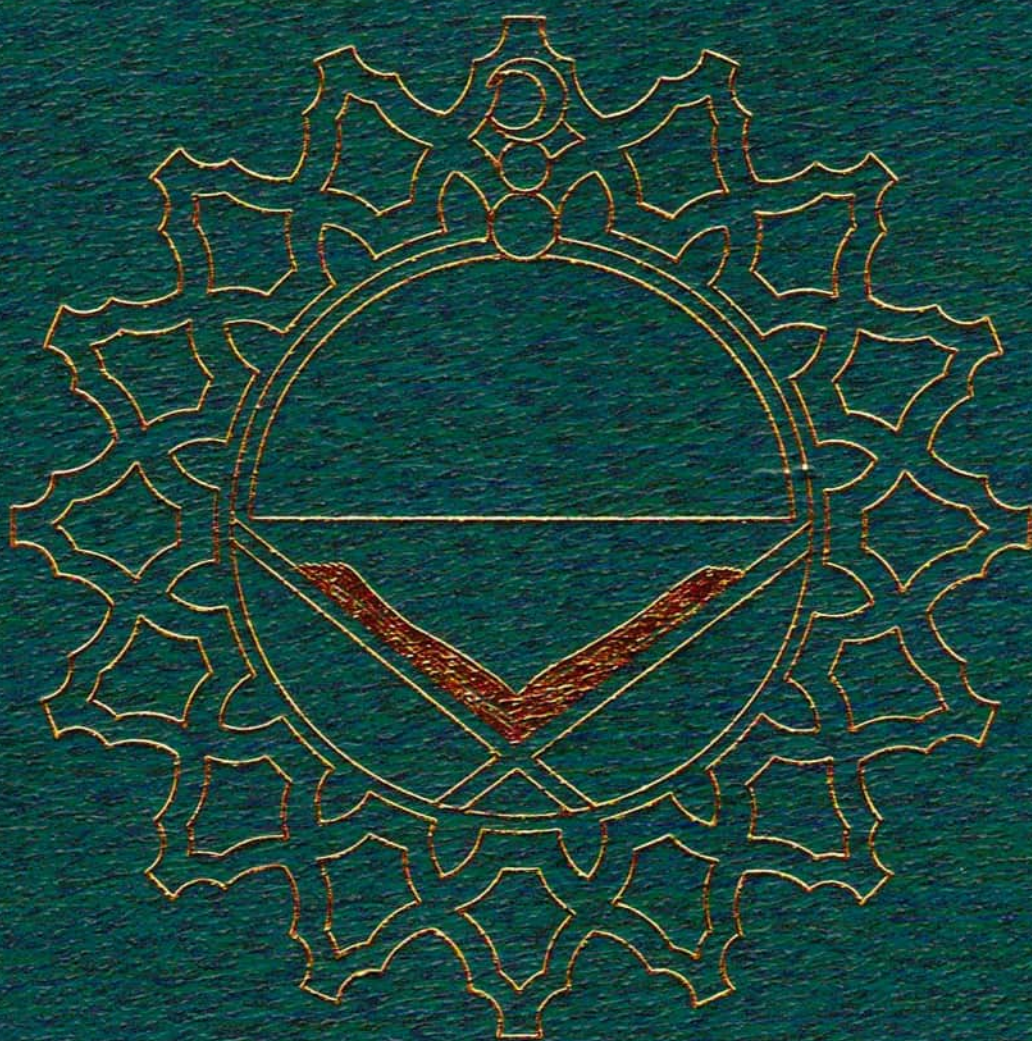


خِيارٌ من العقيدة الإسلامية

(٦)



وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

ضياع من العقيدة الإسلامية

(٢)

[وإبراهيم الخليل وفه]

تأليف
الدكتور فرحات الجعيري

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ — ١٩٩٤ هـ

الإهداء

إليك أيّها الشباب المسلم في كلّ أطراف المعمورة أهدي هذا العمل المتواضع عسى أن يزيدنا إيماناً على إيماننا .
والله نسأل أن يجعلنا خير خلف لخير سلف، وأن يجمعنا
وأنبياؤه ورسله وأوليائه الصالحين في جنّات النّعيم .

فرحات

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا
أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُّوْا بِهِ
عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ
أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تُكْسُوا عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْفَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

الآيات من سورة الأنبياء

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله.

اللهم صلّ على نبينا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد.

الحمد لله الذي جعل الجمل الثلاث : لا إله إلا الله، محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنّ ما جاء به حق من عند الله، فاصلة بين الحق والباطل، من تمسك بها سعد، ومن أعرض عنها تعس.

الحمد لله الذي جعل الدين عند الله الإسلام.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٣ آل عمران : ١٩).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

(٣ آل عمران : ٨٥).

الْخَاسِرِينَ ﴿

الحمد لله القائل :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤) ﴾

(١١٢ الإخلاص).

الحمد لله القائل :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾

(٦ الأنعام : ١٥٣).

الحمد لله الذي كرم الإنسان أيما تكريم ، وفضله على كثير ممن

خلق تفضيلا :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(١٧ الإسراء ٧٠).

الحمد لله الذي أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، وجعل خاتمهم

سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ (٤٥) وَدَاعِيًا

إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾

(٣٣ الأحزاب ٤٦).

الحمد لله الذي استجاب في هذا النبي الأمي دعوة خليله إبراهيم

عليه السلام إمام المسلمين

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٩).
الحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وبعد :

فيا طالب الاستقامة، يا من تضرع لرب العالمين آناء الليل وأطراف
النهار بقولك :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة ٦).

بعد أن تقرّ أنك لا تعبد إلا إياه ولا تستعين بسواه .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٥).

هلمّ - رحمننا الله وإياك - إلى أنوار القرآن الكريم، عسى أن نقبس
منها بقدر المستطاع، ما من شأنه أن يزيدنا إيماناً خالصاً، ويبدّد من
حولنا ما في الحياة الدنيا من ظلمات بعضها فوق بعض .

لقد أحببنا - أيها الأخ الكريم الحبيب الينا صلاحه في الدّين والدنيا
والآخرة - في هذه الخواطر أن نعيش في رحاب سيّدنا إبراهيم عليه
السّلام، في حملته الإيمانيّة على الوثنيّة الخلاّبة، وفي إرسائه قواعد
البيت العتيق، وفي إقامته صرح الإسلام، وفي التّضحية من أجل ذلك
بأغلى ما يضحّي به الإنسان، وفي ابتهالاته الزكيّة في السّراء والضّراء
للذي يعلم السّر وأخفى .

في منهجنا مع هذا النبي الكريم بما جاء في شأنه مبثوثا في كتاب الله العزيز:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء ١٢٢).

ورجاؤنا من بث هذه الخواطر، أن نتعاش سويا في رحاب تجربة إيمانية صادقة، لتكون لنا أحسن أسوة كما شاءت حكمة العليّ القدير:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ
إِنَابِرَاءٌ وَأَمِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾

(٦٠ المتحنة ٤).

وما أسمى هذه الأسوة لمن ألقى السمع وهو شهيد :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(٥٠ ق ٣٧)

وذلك في عصر عملت الحضارة المادية على زرع كل أنواع الشبهات لتجتث الناشئة المسلمة من جذورها الإيمانية الطاهرة، ولتسخرها بعد ذلك في تيار المهالك الجارف، ولتبقى لاهثة وراء السراب، وهي تحسب أنها تحسن صنعا.

ولتكن خواطرننا كما ألمحنا من قبل حسب الخطوات التالية:

- تمهيد : من هو إبراهيم عليه السلام ؟
- المحور الأول : إبراهيم يحطم الأصنام .
- المحور الثاني : إبراهيم إمام المسلمين .
- المحور الثالث : من ثمرات العقيدة الراسخة .
- المحور الرابع : ابتهالات إبراهيم عليه السلام .
- الخاتمة : بعض العبر .

اللهم إنّ هذه جرأة منا على كتابك وعلى خليلك ، فاغفر لنا ما طرأ فيها من زلل إنّك أنت الغفور الرحيم ،

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

(٢ البقرة ٢٨٦)

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

(٣ آل عمران ٨) .

تمهيد :

هل تعرف إبراهيم عليه السلام ؟

يقول عز من قائل :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿ ١٢٠ ﴾ شَاكِرًا لِلنَّعْمَةِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(النحل ١٢٠ - ١٢٢).

ذلك هو إبراهيم الذي أراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون
من الموقنين فكان .

ذلك هو إبراهيم الذي أخذ من ربه الميثاق الغليظ ، وآتاه رشفه ،
وأتم عليه نعمته ، وجعله من أولي الأيدي والأبصار ، ومن عباد الله
المصطفين الأخيار في الدنيا والآخرة ، وأخلصه خالصة ذكرى الدار ،
واتخذة خليلا ، وكان به حفيّا ، وآتاه الله الحجة على قومه ، وآتاه
صحفا ، وجعله من شيعه نوح وآدم عليهما السلام ، ورفع درجاته ،
وبوّأ له مكان في البيت فأذن في الناس بالحجّ ، وجعل في ذريته النبوة
والكتاب والملك وترك عليه في الآخرين ، واستجاب لدعائه

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

(٣ آل عمران ١٦٤).

ذاك هو إبراهيم ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا وإنما كان من المسلمين إذ تبرأ من الشرك ومن المشركين، فسلمه الله من حرّ الجحيم، وكانت النار عليه بردًا وسلامًا. ثم ذهب إلى ربّه بقلب سليم، فاستجاب له ووهبه من الصّالحين، فصدق الرؤيا، وتلّه للجبين، وفدى الله ولده بذبح عظيم، فكتبه ربّه في عداد المحسنين.

ذاك هو إبراهيم الذي وقى، فأمره الله ليطهر البيت للطائفين والعاكفين والركع السّجود بعد أن رفع قواعده مع ولده إسماعيل، ثم أذن في الناس بالحجّ فجاؤوا رجالًا وعلى كلّ ضامر ومن كل فج عميق

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾

(٢٢ الحج ٢٨).

ذاك هو إبراهيم صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، من عباد الله المؤمنين المحسنين، كريم أوّاه حلیم منيب، إنّه لجدير بأن يكون إمامًا، وأن يكون أسوة حسنة لمن يرغب في التمييز بين معسكر الكفر ومعسكر الإيمان، دون أن تنطلي عليه الحيل، وذلك ليترك الزبد لأن الزبد يذهب جفاء، وليستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝﴾ (الرعد ١٧).

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾

(البقرة ٢٥٦).

هذا هو أبونا إبراهيم - يا طالب الاستقامة - بشر رسول، أقرب ما يكون إلى الكمال، إذ الكمال لله عزّ وجلّ، جاءت خصاله التي حاولنا أن نجتمع في هذا التعريف، ماثلة في خمس وعشرين سورة من القرآن الكريم وذكر فيها تسعا وستين مرة : البقرة - آل عمران - النساء - الأنعام - التوبة - هود - يوسف - إبراهيم - الحجر - النحل - مريم - الأنبياء - الحجّ - الشعراء - العنكبوت - الأحزاب - الصافات - ص - الشورى - الزخرف - الذاريات - النجم - الحديد - الممتحنة - الأعلى .

فما لنا معاشر المسلمين اليوم اشترأبت أعناقنا تبحث عن الهداية في كل ما هبّ ودبّ من عطاءات الحضارات القديمة والحديثة ظانين بذلك أننا نواكب المعاصرة والمعاصرين، ونحن في الحقيقة نرتكس بأنفسنا، فندمرها ونهلك العالمين الذين اختارهم الله لنكون شهداء عليهم، ولنسمو بهم إلى درجات من اختارهم الله أسوة للناس أجمعين .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۚ ﴾

(٢٢ الحج ٧٨).

نعم هذا هو أبونا الذي سَمَّانا مسلمين ، فلنكن مسلمين بحق في
نوايانا، وأقوالنا، وأفعالنا حتى نلقى الله وهو عنا راض كما كان
الأمر لإبراهيم عليه السلام.

سلام على إبراهيم إنا كذلك نجزي المحسنين.

المحور الأول : إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام

١- من الفطرة السليمة إلى الادراك الواعي

يقول الله عز وجل :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
إِلَّا تَبْدِيلَ لِمَخْلُوقِ اللَّهِ ذَلِكَ أَلَدِيبُ الْقِيَمِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(٣٠ الروم ٣٠).

ويقول أيضا :

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

(١٧ الإسراء ٤٤)

تلك هي الفطرة السليمة ، كل المخلوقات تسبح بحمد الله على
طريقتها ، ولكننا نعاشر البشر لانفقه تسبيحهم ، وهل يفقه الإنسان
إلا ما يسره له الرحمن .

نعم السماوات تسبح ، والأرض تسبح ، وكل الجهاد يسبح ،
والنبات يسبح ، والحيوان يسبح ، أي يعبد الله حق العباد ، وينزله
عن كل نقص .

ألم يقل عز من قائل :

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ
فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بَغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢ البقرة ٧٤).

والم يقل أيضا :

﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
(٥٩ الحشر ٢١).

نعم تلك هي الفطرة السليمة ، من الحجارة ما يهبط من خشية
الله ، والجبال لو تنزل عليها القرآن لرأيتها خاشعة متصدعة من خشية
الله ، لأن الله خلقها هكذا ، وهي تدين له بالخلق ، وتعترف له
بالفضل .

كذا فطرة الحيوان ، وتأمل معي في موقف هدهد سليمان من ملكة
سبأ وقومها :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ (النمل ٢٢ - ٢٦) .

أليست فطرة هذا الهدى هي التي دلته على أن السجود لا يكون إلا
لله الذي لا إله إلا هو .

كذا كانت فطرة إبراهيم عليه السلام سليمة نقية شفافة طاهرة
زكية ، ألم يره ربه ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين
﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ
مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٦ الأنعام ٧٥) .

نعم إنه لم يكن يهودياً إذ لم يهوده أحد ، ولم يكن نصرانياً إذ لم
ينصره أحد ، وأتى لإبراهيم أن يكون يهودياً أو نصرانياً قبل أن توجد
اليهودية والنصرانية ،

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا أَنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ

حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

(٣ آل عمران ٦٣ - ٦٧).

كذلك لم يتسرب إلى فطرته الشرك رغم أنه كان يعيش بين
ظهري قوم مشركين، اتخذ بعضهم الكواكب أربابا من دون الله،
واتخذ البعض الآخر أصناما آلهة من دون الله، وعلى رأس هؤلاء
أبوه الذي كان سادن المعبد وسيده.

إنه فضل الله على إبراهيم عليه السلام كما ذكر ذلك يوسف عليه
السلام من بعد

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ

لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يوسف ٣٨).

إنه فضل الله عليه، إذ لم تندس فطرته كما تندست فطرة الكثير من
الناس، وكما تندست فطرة أبيه وقومه، وقد شاءت حكمة الله هؤلاء
القوم الخلاص فحفظ إبراهيم ليكون لهم أسوة تخرجهم مما أصاب
فطرتهم من دنس من جراء ما اتخذوا من أرباب من دون الله، ولكن
أكثر الناس لا يشكرون.

وتبدأ الجولة كما يصور القرآن الكريم ذلك بين الفطرة السليمة وبين
الفطرة المندسة المرتكسة، وذلك بعد أن أراه الله ملكوت السموات

والأرض لأن المعركة ليست هينة، والشرك متجذر في قلوب القوم.

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً إِنِّيٓ
أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ
مَلَكَوَتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ
لَأَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ
اتَّخِذُوا مِنِّي قَدَرًا مِّنَ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ
إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ ءِلَٰهٌ عَلَيْكُمْ
سُلْطٰنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

(٦ الأنعام ٧٤ - ٨٣).

إن قضية العقيدة ظلت تشغل بال إبراهيم عليه السلام وتشده لكل ما يدور حواليه، ما لهؤلاء الناس يعبدون الكواكب؟ لعل في عبادتهم بعضاً من الحق، لم لا يقارن بين ما في فطرته وما يحس به في مكنونه، وبين ما في واقع الناس؟

نعم تأمل في أبرز الكواكب، إنه يتميز بالرفعة ويتدفق نورا، وبه يهتدي المهتدون إذا ضلوا السبيل، ألا يصلح أن يكون رباً، نعم إنه يشق عباب الظلام، ويسيطر على الكون، ويشد النفس إليه، وظل يتأمل هذا الكوكب لا كما اعتاد التعايش مع آلاف الكواكب التي تبدو في كبد السماء، ظل يتأمل في شأنه تأمل الباحث عن الحقيقة، وطالت الليلة، فهي ليست كبقية الليالي وهو يرقبه بدقة، أيمن أن يكون هذا الكوكب رباً؟

وعندما انبلج الفجر وبدد نور النهار سجوف ظلمات الليل لم يبق للكوكب أثر، إنه أفل، إنه اختفى، لم يعد يتدفق نورا، ولم يعد صالحاً ليهتدي به.

هنالك تحركت الفطرة السليمة وقالت لا أحب الآفلين، لأن

المعبود الذي تحبه الفطرة لا يجب أن يغيب، إذ إلى من يكون الملجأ في حالة غيابه، والعبد دائم الإحتياج الى معبوده هكذا قالت الفطرة، وخلص إبراهيم الى الأبد من معبودات قومه وقد أراد بهذا أن يسلكوا مسلكه في الخلاص لكن أنى لمن تحجرت فطرهم من خلاص !
نعم لقد أحبوا الآفلين، وتعلقوا بهم تعلق العباداة، ومعلوم أن العباداة أسمى درجات الحب، وظل هؤلاء القوم في حبهم يعمهون.
لكن إبراهيم بفطرته السليمة أبى إلا أن يجتاز بهم مرحلة أخرى مفحمة أكثر، أليس القمر أجلى الكواكب من على وجه الأرض، لم لا يجرب عبادته على مرأى ومسمع من القوم عسى أن تستفيق فطرهم إذا انبلج الحق ؟

نعم إن القمر في ليالي تمامه عندما يصير بدرا منيرا يسيطر على محيط الإنسان، ويرفع عنه كل أنواع الوحشة الناجمة عن ظلام الليل، نعم إنه أهل بأن يطمأن إليه، ومهما يكون من أمر فهو أبرز من الكواكب بل قل إنه سيدّها في كبد السّماء، يجمع بين الرّفعة والنّور والأنس.
ولكن أنى لفطرة إبراهيم السليمة أن تسلّم، والكامن في مكنونها يلهم بأن المعبود بحق يجب أن يكون أعلى بكثير من هذا القمر، نعم إنه لا يجب أن يغيب، وهذا القمر يشترك مع الكوكب في الأفل فهل يصلح أن يكون إلهاً ؟ كلا !

هنالك يتدرّج إبراهيم بقومه فيطلب الهداية من ربّه الذي يجده في ضميره وفطرته، ربّه الذي يحبّه لكنّ قومه لم يجدوه بعد لا في فطرتهم ولا في وعيهم.

﴿ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَيْنِ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾

(٦ الأنعام ٧٧).

ثم تأتي المرحلة الفاصلة التي تعلّم الناس كيف يربطون بين الفطرة وبين الوعي والإدراك.

إنّها الشّمس في هذه المرّة، فلتحكّ هي الأخرى على محكّ الفطرة السّليمة، وهل تصلح حسب ذلكم المعيار الرّبّاني الدّقيق أن تكون إلها؟

إنّها مركز الكون، وعليه مدار جميع الكواكب في المجموعة الشّمسيّة، وحتى من لم يدرك هذا المعنى إذا خبر بين أن يعبد النّجم أو القمر أو الشّمس فما نتصوّر أنّه يقدّم على الشّمس بناتها، ولكنّه الإنسان مخلوق غريب إذا دتست فطرته، فهو عبر تاريخه لم يتأخّر لا عن عبادة الأم ولا عن عبادة البنات.

ويأتي دور الشّمس لتندحر أمام معيار الفطرة السّليمة، ذلك أن أهمّ مستلزمات المعبود بحقّ مفقود، وتبقى هي بالنّسبة إلى الكلّ الغياب.

هنالك يربط إبراهيم بين الفطرة والإدراك العقلي فيصرُخ بأعلى صوته ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ويعتبر أن الحجة قد قامت على قومه .

تلك هي العقيدة الراسخة تبدأ بالرفض الصريح لما يجب أن يرفض، أليس هذا هو الجزء الأول من كلمة التوحيد (لا إله) وهاهو إبراهيم وهو من شيعة آدم ونوح عليهما السلام بقولها صريحة على مرأى ومسمع من قومه مهما كان ثمن التضحية وسيكون غالباً .

ماذا يقول ؟ ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي قاطع الصلة بيني وبين جميع معبوداتكم، فلا حب ولا ولاية، ولا عبادة، بل هو الكره، والعداوة، والاحتقار، لأنه اتضح بالدليل الحسي والعقلي القاطع أنها ضرب من الشرك بالله العلي العظيم .

نعم إنه الرفض المطلق لكل ما يمت بصلة لهذه المعبودات التي ظل قومه على تأليها ردحا من الزمن ليس بالقصير .

ومثل هذا الرفض يعرض صاحبه للخطر ولا شك عند هؤلاء القوم الذين أحسوا أن إبراهيم قد اجتراً على آلهتهم التي يعبدون .

ولكن قبل أن يتحولوا إلى المحاجة أو التعنيف باح إبراهيم بالقسم الثاني من عقيدته ألا وهو جانب الإيجاب والإقرار (إلا الله)

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾

هكذا يصدع بالعقيدة السّمحة الزكّية بعد أن علّم قومه كيف يربطون بين الإدراك الفطري الكامن في الكينونة وبين الإدراك الحسيّ العقليّ الذي يعتمد على الدّليل الواضح للعيان ، وهو في هذا يتحمّل مسؤوليته الكاملة، إذ يتكلّم بصيغة المفرد المتكلّم، بصيغة الواثق ممّا يقول ويعتقد، ذلك هو الإسلام يعلمه إمام المسلمين للمسلمين في كل زمان ومكان، توجّه كامل للذي فطر السّموات والأرض .

توجّه بالقلب ، وتوجّه بالقول ، وتوجّه بالفعل للذي تتجلّى عظّمته في كلّ شيء، ومن بينها خلقه للسّموات والأرض من عدم وبدون سابق مثال، ومن هذه بعض صفاته جدير بأن يعبد وأن يحبّ، لأنّه لا يغيب عن معبوداته، كلّما توجّهت اليه مخلصّة في السّراء والضّرّاء ينظر إليها بعين الرحمة، ويهديها إلى أقوم السبل .

وبهذا يرسّي إبراهيم عليه السّلام أسس الحنيفيّة السّمحة التي تميل عن الباطل لتندفع الى الحقّ وتستقرّ عليه إلى الأبد .

ثم يعقّب بالتذكير مرّة أخرى أنّ المشركين الذين اتّخذوا من دون الله أرباباً في واد، وأنه في واد آخر، هو وادي الإيمان الصّادق، معنى ذلك أنّ قومه في عالم، وهو في عالم آخر .

وبمثل هذا الموقف يتحوّل الوضع في البلاد، فبعد أن كانت فيلقاً واحداً، هو فيلق الشّرك، صارت تقوم على معسكرين متقابلين :

- معسكر إبراهيم ومعه ربّه وهو معسكر الإسلام .

- ومعسكر القوم بكلّ ما أوتوا من قوّة وهو معسكر الكفر .

وهذا ما يحدث دائماً عند انبلاج رسالة من الرسلات ، أو دعوة من الدّعوات التّصحيحية .

وإذا ما تمّ الانقسام فلا بدّ من اندلاع المعركة بين المعسكرين إن عاجلاً أو آجلاً ، وقد تكون بالقول ، وقد تكون بالفعل ، وقد تكون بهما معاً .

وتبقى المعركة إلى هذا الحدّ بين إبراهيم عليه السّلام وقومه عقديّة فكريّة إذ هو وإن حقّر آلهتهم وأكدّ لهم أنّها لاتصلح للعبادة ، فإنّه لم يصبها بسوء ماديّ من شأنه أن يثير ضغينة القوم بشدة لذلك بقى . الأمر في مستوى الجدل والمحااجة .

ما هي حجّتهم في هذه المجادلة يا ترى ؟

إنّهم وقفوا من إبراهيم موقف المشفق ، ذلك أنّهم بيّنوا له أنّهم يخشون عليه من آلهتهم أن تصيبه بسوء ، ومعلوم ما يتصوّر الناس إلى اليوم من تأثير النّجوم في مصائر الناس وحظوظهم ، فظّلوا يعزفون طويلاً على هذا الوتر .

نعم إنّهم يحبّون إبراهيم ، إنه ابن سادن معبدهم ، وكانوا جادّين فيما يقولون ، لأنّها تلك عقيدتهم بحقّ ، وهم بذلك يرجون أن يثنوا

إبراهيم عن هذا التّصوّر الجديد للمعبود، هذا التّصوّر الذي لم يألّفوه لأنّ فطرتهم تبلّدت وتدنّست من جراء الشرك بالواحد الدّيّان .

وكذا ما يزال الأمر في كثير من بيئاتنا الإسلاميّة دون أن نتحدث عن البيئات التي ما تزال تتخبّط في دياجير الظلام، فمتى يستفيق المسلمون المخلصون لتخليص هؤلاء وأولئك تماران على قلوبهم كما فعل إبراهيم مع قومه .

لقد أراد القوم أن يثيروا الخوف في إبراهيم، ولا شكّ أنّهم قصّوا عليه من الأحداث الكثير التي تثبت أنّ أناسا قبله أصيبوا بسوء مرير نتيجة تطاولهم على الآلهة .

ولكن أنّى لإبراهيم عليه السّلام أن يقع في أحابيل تصوّراتهم السخيفة، وأنّى للكواكب التي تأفل ولا تستطيع أن تضمن حتّى لنفسها استمرارية البقاء أن تلحق بغيرها الضّرر أو الخير ؟

وهنالكَ - وكذلك كلّ مؤمن ربّاني - يقلب الحجّة على قومه (فأي الفريقين أحقّ بالأمن) ؟ ويبيّن لهم أنّ الذي يرعاه من لا تأخذه سنة ولا نوم لا يمكن أن يخشى مكر الماكرين مهما كان ، ولكن أولى بهم أن يخافوا الله ربّ العالمين إذ هو الذي خلق الشّمس والقمر والنّجوم، وخلقهم أجمعين، وهو القادر على أن يفعل بهم ما يشاء لأنّه على كلّ شيء قدير .

فمن حينئذ يكون أولى بالأمن والطمأنينة ؟ إبراهيم أم قومه ؟ إنها الحجة الدامغة التي رجحت كفة معسكر الإيمان رغم أنه لا يضم إلا رجلا واحدا لكنه في كنف ربّ العالمين بينما يتزعزع كيان المعسكر الآخر رغم كثرة العدد ، لأنه محروم من معية الله عز وجل ، ولكن أتى هؤلاء أن يسلموا رغم قيام الحجة ، وأتى لإبراهيم أن يسلم لهم ، وتستمر المعركة .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(٢ البقرة ٢٦٠).

ويلجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه ليزيده إيمانا على إيمانه ، وما كان الله ليخيّب عباده المخلصين ، إنها القمة في الإخلاص ، وهي السبيل الأوحى إلى الخلاص .

إنه اليقين المطلق في قدرة ربّ العالمين . ولم لانقولها؟ إنه تعامل الحبيب مع الحبيب . ماذا يا إبراهيم ؟ لقد صدقت عندما قلت لأبيك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ، وأي حفاوة أسمى من هذه ، تطلب - دلالة - أن تتعرف على سرّ الصنعة الإلهية فلا يحرمك ربك من ذلك .

إنه معنى سام لا يدركه إلا من جاهد في الله حق جهاده، وما يزال إبراهيم دؤوباً في جهاده.

إنه الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي أثناء وقوعه العملي .

إنه إبراهيم ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية كيفية الإحياء .

وما كان الله ليخيب خليله بعد أن أقر أنه على يقين من قدرة الله،

ولكنه يريد أن يطمئن قلبه ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لَيَظْمِنَنَّ قَلْبِي﴾ . البقرة ٢٦٠

ويطمئن قلب إبراهيم، أي يرتقي درجة أخرى في هذه الطمأنينة

التي ينشدها كل إنسان إذ هي إكسير الحياة، وبدونها تتحول حياة

الإنسان إلى جحيم . وإن أوتي من متاع الدنيا ما أوتي .

ويمثل لأمر الله عز وجل فيمسك أربعة من الطير، ويصرهن إليه

ليتعرف على صفاتهن - لا ليتلي ربه، كلا وحاشا - ولكن ليطمئن

قلبه، ثم يذبحهن بنفسه، وتفارق الروح الجسد، إذ لاهراك، ثم

يقطع هذه الطيور إرباً، ويخلط بينهن، وينطلق ليضع على كل جبل

منهن جزءاً .

إنه اليقين يتجلى في جميع حركات إبراهيم عليه السلام . إنه الإمثال

المخلص لأمر رب العالمين . إنه الشوق إلى معرفة الحياة . ويبقى

الإحياء سرّاً من أسرار الله إذ أنى لمدارك الإنسان المحدودة أن تعرف

كنه الالمحدود . ذلك عالم آخر استأثر الله عز وجل بعلم حقيقته .

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(١٧ الإسراء ٨٥).

ويعود إبراهيم بعد أن امثل الامثال الكامل لأمر الله ويدعو هذه الطيور، سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنها طيور بكاء لا تفقه من كلام البشر شيئاً حتى وهي على قيد الحياة، فأنتى لها أن تستجيب وقد ماتت بعد أن ذبحها بنفسه، إنه اليقين، اليقين الذي تفتقده البشرية اليوم، رغم أنها أولى باليقين من الذين مروا على وجه الأرض لما كشف الله من أسرار لإنسان اليوم، ولكن . . . نعم يدعو، وتأتي الطيور سعياً، تقول بلسان حالها ها أنذا قد أحياني الذي يحيي ويميت.

وتتجلى آثار قدرة الله عز وجل لكن دون أن يدرك إبراهيم طبيعة الإحياء، ولا طريقتهما، ذلك أمر الله لا يرى الإنسان إلا آثاره. ويترك إبراهيم الغيب المحجوب لعلام الغيوب، ويدرك وهو متيقن من قبل أن الله عزيز حكيم.

وهكذا يمنح إبراهيم التجربة الذاتية المباشرة ليزداد يقينا على يقين بمصداق قول الله عز وجل

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾

(٢ البقرة ٢٢٥).

وياليت كل البشر يتأسون بإبراهيم عليه السّلام عندما تتابهم
أحوال الحيرة، ويبحثون عن اليقين فيلجأون إلى من لا يعلم الحقّ
سواه ، فيبدّد ظلمات حيرتهم بما ينير لهم السبيل وللعالمين .
ولكنّ الإنسان قتل ما أكفره، يلجأ إلى غير خالقه فيقع في ما
لا تحمد عقباه، أما المتقدّمون فكانوا يلجأون إلى السحر وما يشبه
السّحر فيضلّون ويضلّون، وأما المتأخّرون المعاصرون فيلجأون إلى
عقولهم المحدودة فتكشف لهم من نواميس الكون الماديّة الشياء الكثير
مما يزيدهم غرورا، فيقارعون عالم الغيب لاكتشاف أسرار النّشأة
الأولى وما إليها فلا يقعون إلّا على السّخافة تلو السّخافة، وإذا
بالإنسان المكرّم يصير في علمهم الزائف من سلالة القردة، والله عزّ
وجلّ أغنى الإنسان عن كلّ ذلك بما أوحى إليه من سرّ هذه النّشأة
الأولى، إنّهُ من آدم وآدم من سلالة من طين، ثمّ جعلناه نطفة في قرار
مكين .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

(٢٣ المؤمنون ١٢ - ١٣) .

﴿ ذَلِكَ

عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ

نَسَلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ
 مِنْ رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
 مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(٣٢ السجدة ٦ - ٩).

لقد اطمأن قلب إبراهيم بحق لأنه سلك المسلك الصواب، ولن
 تبلغ قلوب البشرية الطمأنينة الحق إلا إذا سلكت مثل هذا المسلك
 الرباني الصادق .

وما كان قوم إبراهيم أن يطمئنوا إلى ما وصل إليه من سلامة اليقين
 وهو يقارعهم بالحجج الدامغة الملموسة، فها هو معهم لم تصبه آهاتهم
 بأدنى سوء بل هم المعرضون للسوء من لحظة لأخرى، نتيجة كفرهم
 برب العالمين فاطر السموات والأرض وما فيهن، ومن فيهن بما في
 ذلك كواكبهم التي يؤلهون، وهي لا تفتأ عن تسبيح خالقها آناء الليل
 وأطراف النهار لاتعلم عن عبادتهم شيئا .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
 أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
 وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
 كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(٢ البقرة ٢٥٨).

وترتقي الحاجة في هذه المرة إلى أعلى درجة من درجات السلم الاجتماعي، وأتى للملك أن يسكت عن مثل ما سمع وهو صاحب النفوذ في البلاد.

لقد هاله ما سمع، أن واحدا من رعيته يقال له إبراهيم سفّه أحلام القوم، وتناول على آلهتهم مصدر عزهم وسلطانهم، وتبرأ منها ومن أتباعها على عيون الملأ.

إنّ مثل هذا لا يمكن أن يسكت عنه، ولا يمكن أن يوكل أمره إلى الناس، بل على الملك أن يقف موقفه الحازم وأن يوقفه عند حدّه، وهل من إله غير هذه الكواكب وتلكم الأصنام، إنّ مثل هذا الموقف يهدّد الملك في ملكه، فليضرب الضربة القاضية ولينتقم للآلهة ولملكه وللرعيّة، هكذا سوّلت له نفسه، وأعانتة على ذلك حاشيته، وكل من رفع إليه القضية، المهمّ أنّ هذا الفتى يجب أن يوقف عند حدّه، ويجب أن يردع ردعاً مبيناً، وليكن ذلك عن طريق الحاجة في المرحلة الأولى.

إنّه الغرور بالملك، وكذا كل غرور يعمي ويصمّ. فعوض أن تكون النعمة مصدر شكر واعتراف بالفضل تتحوّل عند المغرورين إلى منطلق كفر وطغيان، وبهذا الشعور بالعظمة انطلق يسأل إبراهيم عن ربّه الذي استبدل به آلهتهم أجمعين.

فيأتي جواب إبراهيم ساطعاً واضحاً وضوح الشمس في كبد السماء
﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨).

وهو يشير بذلك إلى المعنى الراسخ في عقيدته، والمتمثل في أن سرّ
الحياة والموت لا يعلمه إلا الله، ذلك أن الله هو الذي ينشيء الحياة في
جميع العوالم الحيّة من نبات وحيوان وغيرها، ويزيل الحياة بالموت ،

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(٢٧ النمل ٦٤).

وبدت الحجة جليّة أمام الملك، ولكن هل يمكن على رفعة مكانته
أن يستسلم من الضربة الأولى؟ كلا . فلا بدّ من العناد ، وإن كان
قائماً على الزيف . ماذا تقول الرعية يا ترى؟ إنه ضياع الملك أو الهيبة
على الأقلّ، أيغلب من هذا الفتى في اللحظة الأولى من المناظرة ؟ لا
سبيل إلى ذلك .

ولمعت الخاطرة في ذهنه، ومثل هؤلاء الناس لا ينقصهم الذكاء ،
ولكنهم يسخرونه في الدهاء ليحافظوا على ملكهم، ويرفع من شأنهم
في عين أنصارهم الذين يهتفون بحياتهم في كلّ حين لأنهم يعتبرونهم
مصدر نعيمهم وسعادتهم .

ما هي هذه الخاطرة ؟ إنها في منتهى السخف ، إذا تأملنا في

كنهها، ولكنها في منتهى التأثير في الأبصار إذا وضعت في محيطها، نعم الملك أيضا يحیی ويمیت، أليس أنه إذا قرر الحكم بالإعدام على أحد وقد يكون إبراهيم، فإنه حكم نافذ وهو بهذا يمیت، وأليس أنه إذا أراد العفو عن هذا المحكوم عليه بالإعدام فإنه حكم نافذ وهو بهذا يحیی.

سبحان الله، كيف يسوّل الغرور للمغرور، شتان بين المعنى الذي يشير إليه إبراهيم عليه السّلام، وبين المعنى الذي لاذ إليه الملك، وأنى للأوامر بالأحكام أن تكون مثل الإنشاء من عدم والإفناء المطلق.

إنه الغرور، ألا يعلم الملك من تجربته أنه كم من مرة يعزم على إعدام أحد ولكنّ واهب الحياة لا يريد فلا تتمّ إلا إرادة واهب الحياة، وكم من مرة يعزم الملك على العفو ولكنّ السيف يسبق ذلك لأنّ الأجل وهو بيد الله قد حان.

ألا يعلم الملك، أنّ الملوك لو كانوا قادرين على الإحياء الحقّ ما مات جده الأول أبدا وما وصل إليه الملك في يوم من الأيام، نعم إنه يعلم ولكنه يكابر.

وأمام هذه المكابرة على هذه الحجّة الأولى التي لا يمكن أن تظهر آثارها باللموس لأنّ الإنشاء والإفناء من أسرار الغيب يلجأ إبراهيم

إلى حجة ملموسة دامغة يمكن أن تلجم الخصم الحجر أمام أنصاره
أجمعين، وكذا حجة المؤمن الرباني الملهم من رب العالمين في كل زمان
ومكان.

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ

الْمَغْرِبِ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨).

الناس جميعا يعلمون هذه الحقيقة، لأنهم يعيشونها صباح مساء،
من قلّ علمه ومن كثر، وإبراهيم ينسب هذا الأمر إلى الله الواحد
الديان الذي دان إليه، وأعتبر أمامهم أن التوجه إلى غيره شرك.
ألم يقل لهم إنه فاطر السموات والأرض، ألم يعلموا أنه خالق كل
شيء، فهو الذي خلق الشمس، وهو الذي أرادت حكمته أن تأتي
للناس في هذه الأرض في كل صباح من المشرق، وأن تغيب عنهم في
المساء من المغرب، إنها حركة رتيبة ألفها الناس، وغفلوا عن خالقها
ومدبرها، وهذا إبراهيم يذكرهم بهذه المعلومة التي تكاد تكون
فطرية، ولكن في هذه المرة لدحض حجة الملك الذي زعم أنه يحمي
ويعميت كما يفعل رب إبراهيم عليه السلام.

وتندحر الحجة، ويغيب الذكاء، ويتلجلج اللسان، وينكدح
العقل محاولا أن يتناول بحجة تفرع الحجة، ولكنه الفراغ، ولكنها
الهزيمة النكراء بالنسبة الى الملك، والظفر المبين بالنسبة إلى إبراهيم،

ويظل الملك فاغرا فاه ، لا ينس بينت شفة ، مشدوها ، مفضوحا ،
تجاه نفسه ، وتجاه أنصاره .

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨) .

بينما تتجلى ابتسامة النصر على وجه إبراهيم ، ويحمد الله ربّ
العالمين الذي آتاه رشدَه وأَيّده بنصره . ذاك لأن إبراهيم مدّ يده إلى
الهداية ، وظلّ يسعى إلى الربط بين فطرته التي لاتب الآفلين ، وبين
وعيه الذي يبحث عن اليقين ، بينما طمس الملك فطرته ودنّسها بعبادة
غير ربّ العالمين ، فلم يزد ذلك إلا ضلالا على ضلال ، وضاعت
منه الحجة ، بعد أن راوغ في المرة الأولى ، وظنّ أنّه منتصر وذلك وقت
أن كان في أشدّ الحاجة إلى الحجة

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢ البقرة ٢٥٨) .

ذاك هو إبراهيم ، وقد هداه ربّه واصطفاه ، يعلمه دروسا إيمانية
صادقة لا يعمل فيها الزّمن بالبلى ، بل تظلّ الأنوار السّاطعة منها
تضيء سبيل الذين يعتنقون ملّة إبراهيم إلى أن يرث الله الأرض ومن
عليها .

ألم تنبع من هذه المناظرة وغيرها من المناظرات الواردة في كتاب الله
العزيز جميع مناظرات المسلمين مع فيالق المشركين والمنافقين واليهود
والنصارى والمجوس وغيرهم حيثما حلت كلمة الإسلام يحملها

مسلمون صادقون لا يتحولون إلى أعمال السيف إلا بعد إقامة الحجّة،
فيؤيدهم الله بفضله، ولك - يا طالب الإستقامة - في المناظرات
الإيمانيّة المبتوثة في تراثنا الإسلامي المجيد، خير دليل على ما نقول
فلتعد إليها في مظانها والله ولي التوفيق.

٢ - من القول إلى الفعل

ما يزال إبراهيم يتدرّج مع القوم ويقيم عليهم الحجّة تلو الحجّة
﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(٦ الأنعام ٨٣) .

ولكن قومه قد ران على قلوبهم ، وما يزالون في طغيانهم يعمهون ،
وأصنامهم يعبدون .

فما الحيلة ؟ ولم ينفع الوعظ والتوجيه ، ولم تفد الأدلّة البينة لا الملك
ولا الرعيّة ، لم يبق إلاّ التحوّل إلى الفعل ، والانتصار العمليّ للعقيدة
الإيمانية .

رأوا إبراهيم يتخلى عما يعبدون من الكواكب ، فلم يتغيّر موقفهم
ذلك لأنّ النجوم باقية على حالها ولا يمكن لإبراهيم أن يغيّر من
وضعها شيئاً ، وإن حقرها بين أيديهم ولم يصبه سوء .

رأوا إبراهيم يناظر الملك ، وينتصر عليه ويفحّمه ، لكنّ ذلك لم
يغيّر في ملكه ، فهو الملك صاحب السلطة في البلاد .

فليعبد إبراهيم ربّه ، وليعبدوا أربابهم ، وكفى ، ولكن أنّى لإبراهيم
أن يقف عند هذا الحدّ ، وهو رسول من ربّ العالمين ، فليحاول
محاولة أخيرة مع أبيه لعله يحوّله إلى دائرة الإيمان نعم إنه سادن المعبد ،
ولو اهتدى فلا شك أنّه متبوع ، فإن لم ينجح مع السلطة الزمّنية
فلعله ينجح مع السلطة الروحية .

أ. تصرف إبراهيم مع أبيه:

قال تعالى :

﴿ وَادْكُرْ

فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَأْتٍ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتٍ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَأْتٍ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِتِي
يَا إِبْرَاهِيمُ لَبِنَ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

(١٩ مريم ٤١ - ٤٨).

هاهو إبراهيم يقف وجها لوجه مع أبيه، وهو رمز السلطة الروحية
في البلاد، ومهما كبر الولد فهو صغير في عين أبيه، إنها المهمة إيمانية في
منتهى الصعوبة، إذ يتكامل عاملان يدفعان إلى الرفض، عامل
السلطة الروحية وعامل الأبوة، وواحد منهما كاف ليكون من أشد
الحواجز، فما بالك إذا اجتمعا في شخص واحد.

إن إبراهيم لأواه حليم ، فلا يمكن أن يبدأ ولي نعمته والذي كان سببا في وجوده إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا المشهد الوارد في سورة مريم يفصح بجلاء عن أبرز مراحل هذه المحاور الإيمانية بين إبراهيم وأبيه .

يبدأ المشهد بتقرير حقيقتين عن إبراهيم عليه السلام، إنه صديق ، وإنه نبيّ، لقد جمع بين المدد الإلهي المباشر عن طريق الوحي ، وبين خصلة بشرية راقية هي الدرجة العالية في التصديق بما يأتي من رب العالمين . ذاك هو نموذج الأنبياء والرسل جميعاً، أولئك الذين اصطفاهم ربهم ليكونوا أسوة للعالمين .

وتأتى الإشارة الأولى من الصديق النبي لأبيه قمّة السلطة الروحية في البلاد بنبرة ندية شجيّة هادئة ملؤها التلطف والتأدّب والحنان (يا أبت) ويستعد الأب للتلقّي من هذا الولد، فيغتئم الابن الفرصة السانحة ويثير العجب لدى أبيه مركزاً على خصال الأصنام التي يعبد الأب دون أن يذكرها باسمها، وما هي الخصال التي يختار إبراهيم (مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) .

إنه تعريف بحقيقة معبودات أبيه بطريقة مرنة اعتمدت على المسلك غير المباشر إذ لم يقل لأبيه لم تعبد أصمّ أعمى عاجزاً، وإنما اعتمد أسلوب السلب القائم على النفي ، ووقع ذلك ألطف على السمع ،

وإبراهيم في حاجة إلى ذلك لأنه يريد أن يكسب أباه، إذ يعتقد أن وراء كسبه مغنا عظيمًا لدعوته الإيمانية.

وإبراهيم بهذه الطريقة الإنكارية اللطيفة يريد أن يثير جانب العقل البشري في أبيه ، إذ كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يعبد ما هو دون الإنسان بل ما هو أدنى من الحيوان، إنها الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا يتوفر فيها أيّ مقوم من مقومات من يستحق حتى مجرد التقدير، فكيف يتوصل بها رغم ذلك الى مستوى أن تعبد ! نعم إنها لاتغني عن الذين يعبدوها شيئًا، بل هم أولياء نعمتها إذ يرعونها آناء الليل وأطراف النهار بالتنظيف وما إلى ذلك، مما يجعل حولها هالة لا دخل له فيها.

تلك المشاعر الكامنة عند أبيه وعند كلّ إنسان أراد إبراهيم أن يثيرها في الإشارة الأولى.

ثم في الإشارة الثانية : ينتقل بأبيه على نفس المسلك اللطيف (يا أبت) إلى حقيقة أسمى، وفي هذه المرة تتعلق بابنه وفلذة كبده، والآباء من طبيعتهم لا يقبلون أن يتفوق عليهم سوى أبنائهم فإنهم يطربون بتفوقهم بل يظلون طول حياتهم يعملون على تحقيق ذلكم التفوق، إنه يصرح لأبيه أن الله ميزه بعلم لم يبلغه الأب نفسه، إنه المدد الرباني، إنه الوحي، وفي كلّ ذلك لا يصرّح باسم العلم الذي

أوتيه، ولا باسم الذي وهبه إياه، مراعاة لشعور أبيه في هذه المرحلة الأولى من مراحل الدّعوة، إنّه علم لم يحصل على مثله الأب رغم إنّه سادن المعبد، وقدوة القوم، ثم يبين لأبيه ما ينبغي على هذه الحقيقة، إنّه اتباع الأب لابنه، وهو يعدّه بأن يهديه صراطاً سوياً، ويبقى المسلك نفسه لدى إبراهيم كما رأينا في الإشارة الأولى يقوم على التوجيه غير المباشر دون الطعن الصريح في مسلك الأب.

- ١ - إنّ علم الابن أسمى من علم الأب.
 - ٢ - إنّ على الأب أن يكون تابعا للابن .
 - ٣ - إنّ على الابن أن يهدي الأب صراطا مسقيما مقابل هذا الإتياع .
- وبهذا يكون إبراهيم قد بيّن لأبيه بذكاء ولطف يتناسبان مع هذا المقام من مقامات الدّعوة إلى الله ما يلي :

- ١ - أن على الأب ألا يغتر بما أوتي من علم .
- ٢ - وأنّ علمه هذا بعيد عن الصراط المستقيم فهو بالتالي ضلال في ضلال .

- ٣ - وأنّه بناء على هذا وجب عليه أن يتّبع ما أوتي ابنه من علم إذا أراد أن يكون من المهتدين .

ثم تأتي إشارة إبراهيم الثالثة : وإن تصعدت اللّهجة فإنها تبقى مفتوحة بالنداء الذي يتفاعل معه كيان الأبوة (يا أبت) ، إنّه ينهي أباه

عن عبادة الشيطان، فالأصنام أي معبودات أب إبراهيم شر، بل رأس الشر وسنامه، وهذه جرأة وتناول على ولي أمر الأصنام، إذ يعتبرها أساس كيانه، ومصدر رزقه الذي أنفق منه على إبراهيم نفسه الذي يخاطبه الآن بمثل هذا الخطاب، ولكنه الحق، ولا هوادة في الحق، فإن لطف في الإشارتين السابقتين، ولم يسم الأمور بمسمياتها المباشرة، فإنه الآن صدع بالحقيقة عسى أن ينتبه الأب، لأنه غارق لأم رأسه في هذه العبادة، فلا بد أن يهز كيانه عسى أن تتحرك فطرته، وتثار لما أفسدته العادة من وعيه وإدراكه.

ثم يصارح أباه بالحقيقة التي استقرت مع بني آدم منذ أن وجد آدم:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ مريم ٤٤

وذاك منذ أن امتنع عن السجود لأدم، وأخذ العهد من الله على أن

يضل كل من لبي دعوته، ونهج نهجه إلا عباد الله المخلصين

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٣٩

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿

(١٥ الحجر ٣٩ - ٤٠).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

الْمُنْظَرِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ ٨١ ﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٨٢ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿ ٨٣ ﴾

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ

مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

(٣٨ ص ٧٩ - ٨٥).

هذا هو الشيطان ، عصيان صرف رغم رحمة أرحم الراحمين ، فكيف يحق لأي بشر أن يعبد أو أن يسقط في غوايته فيعبد أصناما من دون الله الذي يبدى ويعيد ، وهو رب العرش المجيد ؟ ويستغل إبراهيم هذه الإشارة الثالثة العنيفة ليبيّن مدى حبه له ، وماذا يحب مؤمن رباني أوّاه حلّيم لأبيه ولغيره من البشر بعد أن إنكشف له من الحقّ ما لم ينكشف لغيره ، إنّه لا يريد للناس جميعا إلا الخير ، وعلى رأس هؤلاء أبوه ، وهو رأس في قومه بحقّ ، إنّه من فرط حبه له يخاف عليه ممّا ينتظره من العذاب من الرحمن نتيجة انصياعه لمن كان للرحمن عصياً ، إذ مادام لم يطع خالقه فهو أولى بأن يعصى ، ولا يغفل إبراهيم وسط هذا النذير العنيف أن يختار من أسماء الله الحسنى ما يوحى بأسمى درجات الخير ، إنّه الرحمن لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ، ولم يذكر من أسمائه ما يوحى بالقهر والكبرياء ، وذاك عسى أن يستهوي هذا الأب الذي سيطر عليه الشيطان ولم يترك له مجالاً للتحرّر ، وهو أخشى ما يخشاه على هذا الأب وذلك بأن يختم له على تلك الحال ، فيبقى من أولياء الشيطان إلى الأبد ، وإبراهيم يعلم مآل هذا الصنف من الناس ، وإن كان أبوه في غفلة تامّة عن

مثل هذه المعاني، وسيستمرّ على غفلته إذ ملأ الشيطان شغاف قلبه، وسيطر على كيانه، ويتجلى ذلك من خلال الرّد الجافي، الذي يدل دلالة واضحة على جهالة هذا الأب، إنه في طغيانه يعمه رغم أن نور الإيمان انبثق من صلبه ومن أعماق بيته.

إنه الإنكار الشديد، والوعيد الذي ليس بعده وعيد، ولم تطل عبارة الأب لأن هذا الابن خيب آماله، وهو ما يزال يهيئه ليكون وريثه، وسادن المعبد، وسيد القوم، بالخسارة، إنه أمر يثير العجب والإنكار، فكيف يصدر مثل هذا الكلام من ولده !

ولو صدر من غيره لعله يقبل إذ قد يعزى ذلك إلى الجهل، أما هذا الولد الذي عايش الأصنام من يوم ولدته أمه، يعتبرها اليوم شياطين ومصدرا من مصادر الشرّ هذا ما لا يقبله هذا الأب المنكوب، ويقف من إبنه موقف صاحب العقيدة الرّاسخة، وهكذا الحال عندما تصطدم عقيدة بعقيدة، وإن كانت واحدة زائفة، والأخرى حقاً، فحتى الزائفة تبقى عقيدة، وإن كانت باطلا (قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَّبِرْهِيمُ) ما هذا الأمر العجيب ؟ كيف تحدّث إبراهيم نفسه أن يرغب عن الآلهة التي ينسبها الأب لنفسه ؟ فهو يعتنقها ويعتز بها ويعتبرها جوهر حياته (آلهتي)، وهذا ابنه وكأنه من الآن أهل بأن يتبرأ منه ،

فهو لم يجب نداء البنوة (يا أبت) بالنداء المماثل (با بني) ولكن اكتفى بالاسم المجرد ، إنّه إبراهيم وكفى ، ليس أهلاً بأن يكون إبناً لهذا الوالد لأنه أعرض عن آلهته ، وتحول إلى عبادة أخرى لم يفقه الأب منها شيئاً .

إنّ مثل هذا الموقف لجدير بأن يكون مثيراً للعجب والإنكار من هذا الوالد ، وقد عبر عن ذلك بكل ما أوتي من قوّة .

ثمّ تحول بعد ذلك إلى الوعيد والندير ، وهو يرجو من وراء ذلك أن ينتهي إبنه عما ذهب إليه ، وأنّى لإبراهيم أن ينتهي عن عبادة الواحد الديان بعد أن انبلج له نور الحقّ ، وهو يسعى إلى أن يهدي أباه إلى أقوم السبل ، بل لن يزيده مثل هذا التّهديد إلا تمسكاً وصلابة .

ما هو هذا التّهديد يا ترى ؟ إنه من أشد أنواع الإنتقام ، إنه الرّجم بالحجارة إلى الموت ، إذ اعتبر الأب أن التحدي سافر ، وأنّها الفضيحة ، فهلاك هذا الولد المفسد لدين الآباء أولى من حياته ، وليكن مسلك إهلاكه درساً لكل من يتناول على الآلهة ، اذ كيف بحق لولد السّادن أن يكون هكذا ؟

وذاك هو مسلك الطّغاة عندما تقرعهم الحجّة ، يتحولون إلى الحديد والنّار ، وهم يغفلون عن أنّ التعذيب بكل أصنافه لا يزيد أصحاب

الإيمان إلا صلابة ورسوخا لأنهم آمنوا أنهم رابحون في كلتا الحالين، فالموت تحت التعذيب شهادة وجنة نعيم، والنجاة منه نصر مبین ثمّ جنة نعيم.

وفي انتظار ذلك إمّا الإنتهاء، وإمّا الرّجم، ويعلن الأب البراءة من ابنه، ويأمره أن يهجره هجراناً ملبياً، إذ صار لا يتحمّل أن يرى وجهه، ولا حقّ له في أن يعيش وسط هذا المحيط الذي يتنفّس أهله ريح الآلهة التي ينكرها إبراهيم، إنّهُ الطّرد الكامل، عسى أن يشعر الولد بالخصاصة ويعود إلى ما كان عليه حسب تصوّر الأب.

وأمام هذا السّخط الجارف الذي كان ينتظره إبراهيم إذ يعلم أنّ المعركة ليست هيّنة، إنّها المعركة بين الكفر والإيمان، فلا بدّ من الصّبر والثّبات وعدم الرّد بالمثل، ولم ينسه تعنيف الأب أنّه في حضرة أبيه الذي يأمل أن يكون من المهتدين (سَلِّمْ عَلَيْكَ) ، إنّهُ الرّفق بعينه، إنّهُ حلیم بحقّ، أبعد هذه الرّحمة رحمة ! أبوه ينذره بالويل والثّبور والرّجم والهجران، وهو يسّلم عليه أي يعلن بين يديه أنّه لن يصيبه منه سوء، وهذا هو معنى هذه التّحية التي صارت تحية المسلمين فيما بعد، وبين الله أنّه اختارها تحية لأهل الجنة

﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سَبِّحْكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ ﴾

(١٠ يونس ١٠).

كذلك يجب أن يكون كل داعية لأن إبراهيم أسوة، وكذلك كان
محمد صلى الله عليه وسلم وكل من نهج نهجه، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾

(٢٥ الفرقان ٦٣).

لقد علم إبراهيم أن أباه كان جاهلاً فخصه بهذه التّحية ثم ماذا ؟
(سأستغفر لك ربّي) وهذا نهاية في البرّ بالوالد، فإن أنكر الأب
رغبة الابن عن آلهته بكل اعتزاز، فإن الابن البارّ والدّاعية المخلص
يعتزّ بربه ويبيّن لأبيه أنّه غفور رحيم، وأنّه سيستدرّ له من
مغفرته، وفي كلّ ذلك يرجو من هذا الأب أن يستفيق من سباته
العميق، كما يبيّن لأبيه أنّه وإن كان مرموقاً وسط الآلهة الوثنيّة فإن
إبراهيم مكرّم عند ربه، وأنّي تستوي المقارنة بين تكريم وتكريم،
بين تكريم مزيف قشوري لا أصل له، وبين تكريم من ربّ العالمين،
(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) وفي ذلك إشارة إلى لطف الله تعالى بإبراهيم
وبرّه به.

تلك هي المرحلة الأولى من المعركة بين الحقّ والباطل، وهي تهيئة
للمرحلة العمليّة، وسنعلم من بعد أن إبراهيم عندما تيقّن بكفر أبيه
تبرّاً منه وإن كان أباه، لأن العقيدة أسمى من أن تدنّس بالمشرك وإن
كان أقرب الناس إلى الإنسان المؤمن، وإن كان في أعلى درجات
الحلم.

لقد باءت هذه التجربة بالفشل ، فهل يتوقف إبراهيم عن الدعوة
لرب العالمين ؟ كلاً بل تستمر المحاولات مع القوم ، ومع أبيه
والقوم ، قبل أن يتحوّل إلى تحطيم أصنامهم ويقع ما وقع .

ب - تصرف إبراهيم مع قومه :

قال تعالى :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَوثَنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ
وَأَعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُمْ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَأَنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ

أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
 فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
 فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
 ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
 بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ
 وَمَالَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ
 إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
 لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
 وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٩ العنكبوت ١٦ - ٢٧).

هكذا يكون الأنبياء والرسل والدعاة المخلصين ، إن خسروا معركة
 فلم يخسروا الحرب على غرار إبراهيم الذي وفى ، إن أعرض أبوه
 فعسى أن يجد أذنا صاغية في القوم ، ذلك أن عقيدة هؤلاء دون
 عقيدة أبيه رسوخا لأنهم أتباع ولعلّ اهتداء بعض منهم يكون فاتحة
 خير لبقية القوم ولأبيه . لذلك وقف بين أيديهم بشيرا ونذيرا وداعيا
 إلى الله وسراجا منيرا ، مقابلا بين عبادة الله تعالى وما يرجى من ورائها
 من خير ، وبين عبادة الأوثان وما تقوم عليه من زيف وبهتان . كل

ذلك في خطوات ثابتة جديرة بأن يقتفى أثرها كل داعية إلى الله عز وجل، إنه بحق إمام الدعاة أجمعين.

اللمسة الأولى : يدعو قومه الذين ينتسب اليهم وهو واحد منهم إلى عبادة الله وإلى التقوى، إنه يعلم يقينا أنهم لا ينكرون وجود الخالق ولكنهم لا يوحدونه في العبادة وهذا شرك مقنع صعب علاجه لأن أصحابه يحسبون أنهم يحسنون صنعا لذلك يتلطفهم إبراهيم، ويدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده، ولا يتخذوا معه شريكا، ولن تتم لكم العبادة إلا إذا شفعوها بالتقوى التي هي مخ العبادة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤٩ الحجرات ١٣).

والتقوى هي أن يشمر الإنسان في العبادة، وأن يحاذر من الوقوع في المحذور لأنه يحس في كل لحظة أنه بين يدي الله وأنه لا تخفى عليه من نواياه وأقواله وأفعاله خافية.

بهذين الأمرين يأمر إبراهيم قومه دون أن يغفل عن تبشيرهم بما ينتج عن العبادة والتقوى من خير في الدنيا والآخرة ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إنها دعوة إلى نفي الجهل، واختيار الأفضل لأنفسهم إذا أرادوا أن يكونوا من المفلحين.

اللمسة الثانية : وبعد أن رغبتهم في عبادة الواحد الديان يعرفهم بحقيقة معبوداتهم.

١ - إنّها مجرد أوثان ، والوثن التّمثال من الخشب .

٢ - إنّهم بعبادتهم هذه لا يستندون إلى برهان ، وإنّما ينشئون باطلا .

٣ - إنّها معبودات عاجزة عن النّفع وأهمه الرّزق .

ويرمي إبراهيم من وراء هذا التعريف إلى أن يثبت لهم سخف عبادتهم ، لأنّ المعبود بحقّ لا يمكن أن يكون من صنع العبد ، ومن صفاته القدرة المطلقة ، وهو بهذا يثير كوامن فطرتهم عسى أن تتحرك مشاعرهم ويقلعوا عن عبادة هذه الأصنام التي ينحتونها بأيديهم ، ثمّ يقعون لها ساجدين مقدّسين ، وهم يقربون لها القرابين عسى أن تقضى حوائجهم ، وهي عن قضاء حاجتها أعجز .

اللمسة الثالثة : يعود إبراهيم ليبين لهم فضل الله على العباد . هذا الذي اختاره ربّا وآمن به ، إنّّه هو الرّزاق ذو القوّة المتين ، وهلى يتغنى الرّزق من عند غيره ؟ وهو الذي لا إله سواه . ثمّ يدعوهم مرّة أخرى إلى أن يعبدوه وحده لأنّه هو الأهل بأن يعبد بحقّ ، وتتجلّى سمات العبادة في الشكر له بتسخير جميع الجوارح في طاعته بالإمتثال لأوامره والإنهاء عن نواهيه ، ويختتم إبراهيم السّياق بالتذكير بعظمة هذا المعبود إذ اليه المرجع وإليه المصير ، فمهما طال عمر الإنسان ، ومهما تصرف كما أراد فعبد ما عبد وفعل ما فعل ، فإنّه راجع إلى الله عزّ وجلّ ليحاسبه على ما قدّمت يداه ، وبهذا فليفهم قومه أن الله وإن

كان رزاقاً فإنه أيضاً جامع الناس ليوم لا ريب فيه، لتوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، وفي هذا التعقيب ربط واضح بين العمل في الدنيا والجزاء في الآخرة، وهو الأمر الذي كثيراً ما يغفل عنه أهل الباطل والضلال.

اللمسة الأخيرة : تتجلى لهجة التحدي، بالتذكير بأحوال الأمم وبحدود وظيفة الرسل .

فان كذب قومه فليسوا أول من كذب، ولن يضر تكذيبهم الله عز وجل شيئاً، بل لأنفسهم سيئون، كما أن هذا التكذيب لن يخل برسالة رسولهم، إذ ليس على الرسول إلا أن يكون أميناً جاداً مخلصاً في التبليغ، وبعد ذلك يوكل الأمر إلى الله عز وجل، وها أن إبراهيم قد بلغ، وما يزال يبذل كل ما في وسعه لفهام قومه سلامة ما يدعوهم إليه وسوء ما يعتنقون من عبادة الأوثان.

إنها أربع لمسات من صميم الدعوة إلى الله عز وجل، وكذا على كل داعية أن يتدرج بمن يدعوهم عسى أن يصل بهم إلى ساحل النجاة بسلام، لقد كانت الحكمة رائد إبراهيم في هذه الدعوة إذ ما فتىء بكل هدوء يقابل بين الإيمان وحلاوته وفضله وما فيه من خير، وبين الكفر ومرارته وتسفله وما فيه من شر، فان كان المؤمن يعبد الرزاق المبدى المعيد ويتقيه ويشكره فلا يخيبه عندما يرجع إليه فإن الكافر يعبد وثناً صنعه بنفسه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً فكيف له أن يشمل من يعبد به بخير أو بشر !

وقبل أن يأتي النصّ القرآني بجواب القوم على هذه اللّمسات الزّكيّة يقف وقفة تذكّر بعظمة الله عزّ وجلّ وقدرته وما ينتظر الكافرين من عذاب أليم .

ثم يأتي جواب القوم معبراً عن عجزهم المطلق أمام حجة إبراهيم وسماحته، ولا حيلة لهم إلا أن يكشفوا له عن طغيانهم، وهم حسب أنفسهم يثأرون لآهتهم، وهم في الحقيقة لزينفهم يثأرون .

ويستقر الرّأي على الحكم بالإعدام، وليكن ذلك بأشدّ أنواع الإعدام ألا وهو الإحراق، سبحانه الله ما أقسى قلب الإنسان إذا أراد أن ينتقم من أخيه الإنسان عندما يخالفه في الفكرة والعقيدة، والتّاريخ يثبت أنّه لم يختلف في تلكم القسوة لا المتقدمون ولا المتأخّرون، وإن كنّا قد نعذر المتقدّمين، فلا عذر للمتأخّرين الذين نادوا وما يزالون ينادون بجميع أصناف الحرّيات، ولكن الواقع يثبت يوماً بعد يوم، أنّ ذلك ضرب من الزّيف والتّمويه فحسب .

ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره، وينجو إبراهيم من النّار، وتتجلّى المعجزة لتبينّ عجز الطّاغوت أمام عظمة الله عزّ وجلّ، لكن أنّى للقلوب الميّتة أن تستفيق .

ويعود إبراهيم ليفضح هؤلاء القوم مبيناً أن استبقاء المودة بين القوم
ومجاملة بعضهم البعض هما اللذان يشدانهم إلى ما هم عليه من كفر ،
ثم يصوّر لهم حالهم يوم القيامة

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

(٤٣ الزخرف ٦٧)

وما سيكون بينهم من لعن ليستقروا في عذاب الجحيم ، وهنالك
لن تنفعهم أوثانهم ولا مودتهم ولا ماكانوا يكسبون .
ما هي نتيجة تلکم الدعوة الدؤوب ؟ إيمان فرد واحد هو لوط ،
ولا سبيل إلى البقاء بين قوم أصرّوا واستكبروا استكباراً ، إنّها الهجرة
إلى الله العزيز الحكيم .

وليس لنا أن نحلل أمر الهجرة وموجباتها قبل أن نزيد تحليلاً لما
جاء في القرآن الكريم من مواقف إبراهيم مع أبيه وقومه كما جاء ذلك
في سورة الأنبياء والشعراء والصفّات والزخرف .

ج - تصرف إبراهيم مع أبيه وقومه

لئن جاء الخطاب في سورة مريم موجّهاً للأب وحده ، وفي سورة
العنكبوت للقوم وحدهم فإنّه وجّهه في سورة الأنبياء والشعراء
والصفّات والزخرف للأب والقوم .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾

(١٢ الأنبياء ٥٢) (٢٦ الشعراء ٧٠) (٣٧ الصفّات ٨٥) .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾

(٤٣ الزخرف ٢٦).

ولاشكّ في أنّ في تكرّر المشهد في سور متعدّدة دلالة واضحة على مدى معاودة إبراهيم لدعوة قومه بأساليب متعدّدة عسى أن يتوبوا لربّ العالمين وذاك شأن الرّسل أجمعين، لا يتوقفون عن الدّعوة حتى يفصل الله بينهم وبين قومهم بالحقّ وهو خير الفاصلين.

وبما أنّنا لا نرمي من وراء هذا الكتاب الشّمول فلنكتف بالنموذج الوارد في سورة الأنبياء مع الاستعانة بالنصوص الأخرى عند اقتضاء الحال.

قال تعالى .:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبِيرَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
 قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِ الْهَيْتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
 عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِآلِ الْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
 هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
 أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِ الْهَيْتِ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

(٢١ الأنبياء ٥١ - ٧١) .

إنّ هذا المشهد القرآني الكريم يعرض معركة بالقول والفعل بين طرفين متقابلين ، بين إبراهيم الذي آتاه الله رشده وكان به عالما ،

وبين أبيه وقومه وهم عاكفون على عبادة الأوثان على مسلك الآباء والأجداد. يسعى إبراهيم لينتصر لربه بالقول ويثبت لأبيه وقومه أنهم في ضلال مبين وما عليهم إلا أن يتخلّوا عن عبادة هذه الأوثان ليعبدوا الله الذي آمن به، وهو ربهم وربّ السموات والأرض.

ويتصدّى له قومه بالقول أيضا، ويعلّلون عكوفهم على عبادة معبوداتهم بالإقتداء بالآباء والأجداد، معتبرين موقف إبراهيم ضربا من اللعب البعيد كل البعد عن الحق.

واضح أنّ كلّ طرف متحمّس لعقيدته، مستعدّ للاستماتة من أجلها مهما كان، وكلّ يعتبر أنّ حجته ليس وراءها حجة.

وما يزال إبراهيم يستنقص آلهتهم ويبرز عيوبها، فهي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر، ولا ترزق وما يزال القوم يحتجّون بحجة واحدة ألا وهي الإقتداء بالآباء والأجداد دون أن يثبتوا لهذه المعبودات مزايا، وما يزال إبراهيم يعرض على القوم فضل ربّ العالمين السميع البصير الرزّاق الذي يحيي ويميت وإليه المرجع والمصير.

ومع ذلك لا يزيدهم ذلك إلا إصرارا، إذ هم يذكرون لإبراهيم أنهم يخافون أن تصيبه آلهتهم بسوء، وهنالك يرى أنّه لا بد من التحوّل إلى الفعل ليثبت لهم بالبرهان أنّه أولى بالأمن منهم، وذلك شأن المؤمن بربه الذي يوقن أنّه لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

ومن القول والمناظرة يتحوّل إلى الفعل إذ رغم إعلانه عن البراءة من معبوداتهم وعداوته الصّريحة لها لم يتحوّل القوم عن شركهم وعنادهم فلم يبق إلا أن يحطم هذه الأصنام حتّى يستريح ويريح القوم، ويثبت لهم بالدليل الملموس عجز هذه الأوثان، والحجّة العملية أبلغ مهما كان القول فصيحاً وقاطعاً.

وفعلا راغ إلى آلهتهم، وهو يعرفها من عهد الصبّا بعد أن تخلّوا عن معبودهم يوم عيدهم، وراح يتهمّم من هذه الأصنام قبل أن يصبّ عليها جام غضبه لأنّها شدّت إليها قلب أبيه وقلوب قومه أجمعين، وكانت حجر عثرة أمام دعوته لربّ العالمين، إنّه قد عيل صبره، فظل يسأّلها وكأنّها تسمع وهو يدرك أنّها صمّاء بكماء :

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ (٣٧ الصافات ٩١ - ٩٢).

نعم راغ عليهم ضرباً باليمين، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون، وذلك تخطيط من إبراهيم حتّى يقيم الحجّة على القوم ويثبت لهم بالبيان الذي ليس بعده بيان سخافة عبادتهم، وعجز معبوداتهم .

إنّها لصورة إيمانية رائعة صورة انتقام إبراهيم عليه السّلام من تلكم الأصنام التي حالت بينه وبين نشر الخير . إنّه لم يكتف بمسّها ببعض الضربات أو بإسقاطها، وإنّما لم يطمئنّ قلبه حتّى تركها قطعاً صغيرة

متناثرة هنا وهناك. كذا يجب أن تكون كلّ معركة مع الأصنام في كل زمان مهما كانت هذه الأصنام، اذ لكل زمان أصنامة.

لقد شفى إبراهيم غليله، وانتقم من هذه الأصنام شرّ انتقام لكن ماذا بعد ذلك ؟ إنه يعلم علم اليقين أن القوم سيثأرون لألهتهم، وسيسومونه سوء العذاب .

لم يترجرج لحظة، فأهلا وسهلا بذلك العذاب مهما كان، لأنه ينتظر الأجر الجزيل من الذي عينه لا تنام.

وعاد القوم إلى أصنامهم فلم يجدوا إلا جذاذا، فجنّ جنونهم، وظلّوا يسألون عن الجاني وما هو منهم بخائف، وأدركوا بسرعة أنه ذاك الفتى الذي ما يزال يذكر آلهتهم بسوء، إنه إبراهيم، لاشكّ أنه إبراهيم .
وهنا يتظاهر أهل المنكر بأنهم يرفعون لواء العدل ويدعون الى محاكمته علنيّة حتّى يرتدع في المستقبل من تحدّثه نفسه بأن يتناول على الآلهة، والأب من بينهم وما يزال يقودهم، وتقدّمت العقيدة على روح الأبوة الدّمويّة .

وتنطلق المحاكمة .

المدّعى عليه : إبراهيم

المدّعون هم القضاة في نفس الوقت : القوم وسلطتهم الروحيّة وسلطتهم الزّمنية .

السؤال الأول : (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِ تَابِرَاهِيمَ ؟ الأنبياء ٦٢
إبراهيم : (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ :
ياله من مدعى عليه ، إنه منتهى الذكاء ، إنها منتهى الجرأة ، إنه
المؤمن بحق ، لقد خطط لهذا الموقف من قبل حيث ترك كبير
الأصنام ، وألصق به التهمة ، ولم لا يكون ذلك ؟ لعله غضب على ما
حوله من أصنام لأنها لم تطع أوامره ، إنه التهكم على أشده ، ولكن
برصانة وهدوء .

وما يريد إبراهيم من وراء هذا إلا إثارة القوم ، وقد ناظرهم من
قبل مرات ، وهو بعجزهم على الحجّة خير ، لذلك أمرهم بأن
يسألوا هذا الكبير ليدفع عنه التهمة ، وما هو بقادر لأنه أبكم .
ولكن أنى للقوم وقد ران على قلوبهم ، وهم مشدودون برباط وثيق
من المجاملة والمودة بينهم لمثل هذه العبادة التي يعتبرون أنها أساس
حياتهم ، أن ينتبهوا إلى المعاني السامية التي يشير إليها إبراهيم ، وهي
أنّ المعبود بحق يجب أن يكون قادرا قدرة مطلقة ، ومن صفاته أن
يكون الكلام له .

لقد أفلح إبراهيم في خطته هذه - ولو للحظة من الزمن - لقد
تزعزعت عقيدتهم ، وحقروا آلهتهم ، واتهموا أنفسهم بالظلم ، إنها
الفطرة - وهي إيمان خالص - ومضت من وراء سجوف الشرك ، ولا

تتصور هنالك فرحة إبراهيم ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو ما ظلّ يسعى إليه، إنه الرجوع إلى النفس التي تشترك مع جميع المخلوقات في التسيب لربّ العالمين إذا لم يذنبها صاحبها بالمعاصي، ونعلم أنّ أشدّها الشرّك لأنّه أكبر الكبائر، وهذا الرجوع إلى النفس هو وحده الكفيل بأن يدفع صاحبه إلى الإنتباه من الغفلة التي تحجب عن الإنسان أبسط الحقائق. ياليت هذه الومضة طالت واستقرّت لأنها كانت ومضة صادقة إذ حكمت على كل المواقف السابقة مع إبراهيم بأنها ظلم يجب أن يتخلّى عنه إلى الحقّ، وهو اعتناق ملّة إبراهيم.

لكن هذه الومضة الإيمانية سرعان ما طمسها كبرياء القوم، كيف! إنهم كثير وإبراهيم وحده، وكيف يخضع الكثير لواحد؟ ولا سبيل حسب زعمهم أن يكون الحقّ إلّا مع الأكثرية. لا. لا. إنّ إبراهيم متمرد على الجماعة وعلى تقاليدها وعلى مقدّساتها هذا ما كانت تحدثهم به نفوسهم الأمارة بالسوء، وهي بذلك تردّ على ما في داخلهم من نفس لوأمة تنجح إلى الطمأنينة.

وكذا حركة النفس الأمارة بالسوء لدى كل إنسان، خاصّة إذا كان في جماعة يسيطر عليها جانب الشرّ، وأي شرّ أشدّ من الشرّك، إنّ ما يسمّى في علم النفس بغريزة القطيع إشارة إلى أن الأغنام إذا إنسأقت واحدة منها ولو إلى الغرق ينساق الكل وراءها.

وانساق القوم مع الأب، وضاعت الفرصة إلى الأبد بالنسبة إلى

إبراهيم ، ونكس القوم على رؤوسهم ليعودوا إلى الجدل العقيم

﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاهَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ الأنبياء ٦٥

وهم بهذا يطالبون إبراهيم بالجديد معتبرين أن هذه حجة بالية لاتزيد في إقناعهم شيئا، إنه المرء بعينه لأنهم بعد أن بانث لهم الحقيقة أبوا إلا أن يطمسوها وأن يحولوا عنها الأنظار، وذلك بالتقليل من قيمة الدليل.

هنالك يدرك إبراهيم أنه العمه، أي عمى القلب

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(٢٢ الحج ٤٦).

فلا قيام لهم بعد هذا الارتكاس، إنه الجهل المركب إذ يجهلون ويجهلون أنهم يجهلون بل يعتبرون أنفسهم في أرقى درجات العلم، وأنكر إبراهيم عليهم الإنكار الأخير، إنهم يعبدون ما ينحتون، إنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر عوض أن يعبدوا الواحد الديان الذي ما فتىء يدعوهم إلى عبادته وأنكر على آلهتهم التي ما يزالون يتعلقون بها ويدافعون عن ألوهيتها رغم أنها لم تملك حتى لنفسها نفعا ولا ضرا.

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. الأنبياء ٦٧

وكانت فعلا الكلمة الفاصلة ليتحول القوم إلى الفعل كما تحول إبراهيم من قبل إلى الفعل فكسّر، والجزاء من نوع العمل ، يجب أن

يحطّم، لكن كيف يكون هذا التّحطيم ؟ يجب أن يكون أشدّ أنواع التّحطيم الذي يعرفه البشر .

أيكتفون بجلده ؟ لا هذا غير كاف .

أيسجنونه ؟ لا . إنّ فعلته أشنع .

أيقتلونه رجما كما توعّده أبوه ؟ لا . إنّ عذاب دون ما ألحقه بهم وبآلهتهم من هزيمة، كلّ ذلك لا يمكن أن يرضي الآلهة المحطمة .

أيقتلونه شنقا . أو إغراقا أو ؟ . . . لا .

﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

﴿ قَالُوا أَبْنَاؤُاَلِهٖ بُنَيْنَا فَالْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ (٣٧ الصافات ٩٧) .

ذاك هو جزاء من ينتهك حرمة الآلهة، وبهذا استقرّ رأيهم على أنّهم الأولى بالأمن، وأنّ إبراهيم الأولى بالخوف لأنّه ظالم حسب معتقدهم .

ما هو شكل هذا التحريق ؟ وما هو حجمه ؟

لم يكن الأمر احراقا عادياً ، وإنّما هو احراق إنتصارا للآلهة وما أدراك ، يحتاج منهم إلى ببيان وإلى إلقاء، إنّها الجحيم التي تحتاج بأن يلقى فيها المحكوم عليه بالتحريق من بعيد .

ماذا يا إبراهيم ؟ ما هذا الإيمان ؟ ما هذا الإخلاص ؟

أمنت أنّك اتخذت ربّك خليلاً، وقلتها عن يقين إنّّه كان بك حفيّاً، إنّك إمام المسلمين بحقّ، وأهل بأن تكون إمامهم بحقّ .

إنّ الذي انتصرت له لا يمكن أن يخيبك ويشمت بك الأعداء . بل

إنّها ستبقى غصة في نفوسهم عندما تتضح لهم هزيمتهم النكراء .

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

الْأَخْسَرِينَ ۚ ۞ . الأنبياء ٦٩

إنّ الذي جعل من طبيعة النار الإحراق سحب عنها هذه الطبيعة،

بل أكثر من هذا أمرها بأن تكون بردا وسلاما على إبراهيم .

ولا يتسع الخيال ليصور ما كان يرفل فيه إبراهيم من نعيم ، عندما

كان القوم يتصورون أنّه يشوى شيأ ، وأنهم استراحوا منه إلى الأبد،

إنّه برد وسلام حساً ومعنى ، وليس بعد بيان القرآن الكريم بيان .

ويندكّ البنیان ، وتنطفئ النيران ، ويسلم إبراهيم بفضل العزيز

الرحمن ، واذا به حيّ يرزق أمام القوم ، إنهم بحق كانوا من

الأخسرین ، وينجو إبراهيم ولا تنفع المعجزة ، ويستمرّ القوم في

ضلالهم ، ولم يبق له إلا أن يهاجر إلى الله بأمر من الله .

وكما ذكرنا من قبل لم يؤمن له إلا لوط ، وليس بعد هذه الحجة من

حجة فليوكل أمر هؤلاء الناس إلى الخالق ، وليفتح صفحة جديدة مع

أناس آخرين ، وفي الهجرة مراغم وسعة كما يقول رب العالمين :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغْمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤﴾

(٤ النساء ١٠٠) .

يقول عزّ من قائل :

﴿ فَأَمَّا مَنْ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(٢٩ العنكبوت ٢٦) .

كما يقول :

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢١ الأنبياء ٧١) .

ويستمر إبراهيم في الدعوة إلى الله في هذه الأرض التي بارك الله فيها للعالمين وتقع أحداث أنظر في شأنها ما يلي :

(سورة هود: ٦٩ - ٨٣) (سورة الحجر: ٥١ - ٧٥) (سورة الأنبياء: ٧١ - ٧٥)

(سورة العنكبوت: ٢٦ - ٣٥) (سورة الذاريات: ٢٤ - ٣٧)

وقبل أن نتّبع إبراهيم في المحطة الأخيرة التي أرسى فيها قواعد الحنيفيّة السّميحة، ألا وهي مكّة المكرمة يحسن أن ندرك من خلال عرضنا لمعركة إبراهيم مع ملك البلاد، ومع أبيه ومع قومه أن صاحب العقيدة يجب أن يعرف ماذا يرفض؟ ومتى يرفض؟

ذلك أن المسلمين اليوم في محنة من أمرهم تجاه ما تقدّمه الحضارة

العالمية من فلسفات تبدو لأول وهلة كأنها الخير كله كما بدت
المعبودات لقوم إبراهيم لكنها سرعان ما يخفت بريقها عندما تعرض
على محكّ الوحي الإلهيّ كما خفت بريق الكواكب والقمر والشمس
والأصنام عندما أثبت إبراهيم أنّه لا يحبّ الآفلين.

نعم إنّ هذه المرحلة من سيرة خليل الرحمن درس راق في التعرّف
على فلسفة الرّفّض لكلّ ما لا يخضع للوحي الإلهيّ ، ذاك أنّ إبراهيم
لم يرفض من اللحظة الأولى ، وإنّما سعى للاقناع بكلّ ما أوتي من
قوة ، ثم تحوّل إلى الرّفّض ، وتحمل مسؤوليته كاملة فنصره الله نصراً
مبيناً ونجّاه من القوم الظالمين .

المحور الثاني : إبراهيم إمام المسلمين

١ - ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً

لقد علمنا أن إبراهيم تصدى لكل ما عرف في عصره من أنواع الشرك، وضحي من أجل ذلك بحياته ولولا عناية الله عز وجل لالتهمته ألسنة اللهب ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٦ الأنعام ٧٨).
لقد أيقن أن الشرك لظلم عظيم كما جاء في القرآن الكريم خلال وصية لقمان لابنه ﴿ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان ١٣).

ومهما كان هذا الشرك ، شرك جحود بأن ينكر الإنسان وجود الله عز وجل ، أو شرك مساواة بأن يتخذ الإنسان لله أندادا يعتقد أنهم يتصفون ببعض صفاته الذاتية أو الفعلية ، فإن رسالة الإسلام قد شنت به وبأهله أشد التشنيع .

تأمل قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

(٢٢ الحج ٣١).

نعم إنها صورة مادية صارخة تعبر عن أخرى معنوية بكل وضوح ، إنه مشهد الهوي من السماء ، أو في مثل لمح البصر يتمزق فتخطفه الطير أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار في هوة ليس لها قرار .

أليس الذي يتخلى عن قاعدة التوحيد الراسخة رسوخ الجبال
الرواسي يفقد الطمأنينة

﴿الْأَلْبَظُّ لِلَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٣ الرعد ٢٨) .

وتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح
فإذا به في كل واد يهيم لا شيء إلا لأنه لم يتمسك بالعروة الوثقى
التي لا انفصام لها .

واعلم علم اليقين أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك
لمن يشاء كما جاء ذلك في سورة النساء في موضعين :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾

(٤ النساء ٤٨) .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

(٤ النساء ١١٦) .

ولتدرك تمام الإدراك أن الله حرم الجنة على المشركين وبين أنهم في
نار جهنم خالدين فيها أبداً

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

(٥ المائدة ٧٢) .

ولاشكّ في أنّ إبراهيم عليه السّلام ألهم كلّ هذه المعني إذ ما يزال
السياق القرآني ينفي عنه أن يكون من المشركين في مواطن عدّة.

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢ البقرة : ١٣٥) (آل عمران : ٦٧ - ٩٥).

(الأنعام : ٦ - ١٦٢) (١٦ النحل : ١٢٣).

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٦ النحل : ١٢٠).

وكما أنّ القرآن الكريم نفى عن إبراهيم الشّرك بجميع أصنافه فإنّه
أكّد أنّه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وذلك في سياق الرّد عل أهل
الكتاب الذين كانوا يحاربون الرّسول محمّدا صلى الله عليه وسلم
ويزعمون أنّ إبراهيم منهم كما زعم المشركون من قريش أنّهم على ملّة
إبراهيم عليه السّلام.

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ (١٣٩) أمّ
نقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب
والآسباط كانوا هوداً أو نصارى قلّء أنتم أعلم أم الله
ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله وما الله
بغافل عمّا يعملون ﴿ (١٤٠) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت
ولكم ما كسبت ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾

(٢ البقرة : ١٣٩ - ١٤٠).

وقال أيضا :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءَ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(آل عمران ٦٥ - ٦٧)

نعم لا يمكن بجال أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ذلك أن
كلاً من التوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد إبراهيم بردح من الزمن وإنما
هو زيف من أهل الكتاب وتضليلهم ، هؤلاء الذين صاروا سادة
العالم اليوم فسقوه السمّ الزعاف في شكل حضارة مادية فاخرة ،
والغريب أن كثيرا من أهل البلاد الإسلامية تنطلي عليهم الحيل
فيدعون إلى التقارب رغم أن النصّ القرآني صريح في أن هؤلاء الناس
أشدّ عداوة للذين آمنوا

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ

ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِيَّسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٠﴾

(٥٠ المائدة ٨٢) .

واليهود اليوم من خلال الحركة الصهيونية وبقية الحركات المادية
جرفوا النصارى معهم - أولئك الذين لم يبق لهم إلا الاسم - في
السعي إلى إستعمار العالم واستعباد الشعوب وغزوهم حساً ومعنى ،
وسحق من يجب أن يسحق منهم ، خاصة من بقيت فيه رائحة
الإسلام الحق .

فإبراهيم حينئذ لا شك أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً
﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣ آل عمران ٦٧)
نعم إن إبراهيم لم يكن مشركاً لأنه يستثنى المعبود الحق كلما تبرأ من
معبودات قومه كما جاء في سورة الزخرف :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾
إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي
عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٨ - ٢٦ الزخرف ٢٨)

إنها لاشك كلمة التوحيد هذه التي عرفت بها البشرية قبل إبراهيم على
لسان آدم ونوح وغيرهما من الأنبياء الذين لم يتصل لهم عقب يقوم
على هذه الكلمة ويعيش بها ولها .

لكن منذ أن أرسى أسسها إبراهيم الذي وفّى ظلت متصلة في أعقابه، وقام بها الأنبياء والرسل من ذريته، ومن بينهم إثنان من أولي العزم موسى وعيسى، إلى أن استقرت مع ثالثهم من أولي العزم، وهو ابنه الأخير من نسل إسماعيل وأشبهه أبناؤه به كما جاء عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: « عرض عليّ الأنبياء . . . ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم » وذلك ليلة الإسراء والمعراج .

فلتعايش في ظلال هذه الكلمة الباقية كما ترددت في ثنايا قصة إبراهيم في الكتاب العزيز، وبصفة خاصة في جنات أول بيت وضع للناس ليعبد الله فيه بحقّ.

٢ - إبراهيم يرسى كلمة الإسلام

في بلاد الله الحرام

يقول الله عزّ من قائل :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا

وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ وَأَسْلِمُ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا
وَحِيدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
 نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(٢ البقرة ١٢٤ - ٢٤١).

ذاك هو إبراهيم ﴿﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿﴾ ،
 بل لم يكتف بذلك وأرادها كلمة باقية خالدة في عقبه فوصى بها بنيه
 ﴿﴾ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿﴾ ،
 إنه بلا منازع أهل لإمامة العالمين ، تلك الإمامة التي خصه بها
 رب العزة ﴿﴾ قال إني جاعلك للناس إماما ﴿﴾ .

ذاك هو إبراهيم مسلم مستسلم استسلاما كلياً للواحد الديان في
 عقيدته وفي أقواله وفي أعماله ، أمره ربه أن يرفع القواعد من البيت

فلم يأل جهدا في ذلك دون أن يتوقف عن التضرع لرب العزة :

﴿ رَبَّنَا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك ﴾ .

فهّمه الأوحّد أن يعيش مسلما، وأن يموت مسلما، وأن تكون ذرّيته مسلمة، وأن يكون كلّ الناس مسلمين، إذ لا قيمة للإنسان بدون إسلام، وهذا ما تجلّى عبر الزّمان وعبر المكان، ذاك أن الناس عندما تخلّوا عن عقيدة التّوحيد لم تعرف الطّمأنينة إليهم سبيلا، لكن عندما تعايشوا في ظلال العقيدة الوارفة عرف العالم الأمن والطّمأنينة والسّلام.

يثبت القرآن الكريم أنّ الابتلاء محكّ العقيدة، وقد يكون بالخير، وقد يكون بالشرّ :

﴿ وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢١ الأنبياء ٣٥).

وقد علمنا ممّا سبق أنّ الابتلاءات تتالت على إبراهيم في معركته مع أبيه وقومه وهذا السياق القرآني يثبت أنّ الله تعالى ابتلاه بكلمات من الأوامر والتكاليف، لم يفصح النّصّ عن مكنونها ولكن أردف ذلك بالنتيجة والمتمثلة في شهادة الحقّ تعالى أنّ إبراهيم كان من الفائزين إذ أتمّهنّ على أحسن وجوه الإتمام وذلك هو الفوز العظيم إذ قلّ من يصبر على البلاء، إلّا أنّه إبراهيم الذي يقول فيه ربّه في موطن آخر من الكتاب العزيز ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾

(٥٣ النجم ٣٧).

استطاع بفضل الله عليه أن يرتقي إلى مقام الوفاء والتوفية أي
الإمثال الكلّي على الوجه المطلوب الذي يرضي العليّ القدير، ذلك
أنّ الإنسان بضعفه وقصوره وتقصيره قلّ أن يرتقي إلى ذلك المقام.

وياها من بشرى تزفّ لهذا الذي أتمّ كلمات ربّه عن يقين وإيمان
صادق ووقاها حقّها كما يجب أن تكون التوفية، إنّها البشرى باختيار
الله عزّ وجلّ له ليكون إماما للنّاس، وطالما تطاول النّاس على الرّئاسة
وتناحروا من أجل الحصول عليها وتباغضوا وتقاتلوا، فإذا هي توهب
لإبراهيم عليه السلام من حيث لم يشعر، ذلك أنّه سلك المسلك
العقديّ الصّحيح الذي أفضى به إلى الإمامة الحقّ، لا الرّئاسة المزيفة
لأنّها الإمامة في العقيدة، إذ لا يزال إبراهيم يناضل من أجل صفاء
العقيدة بتسفيه كلّ آلهة عبدها قومه، وتحطيم كلّ صنم يعبد من دون
الله عزّ وجلّ مهما كان نوعه.

نعم إنّ رجلا كهذا جدير بأن يكون قدوة للنّاس أجمعين يقودهم
إلى الخير، ويقدمهم إليه، ويكونون له تبعاً.

ويا ليت البشريّة اليوم تستفيق من سباتها العميق وتختار مثل هؤلاء
الأنبياء والرّسل لتستنير بما وهبهم الله من نور، ونصيب من هذه
البشريّة اليوم من بقايا أهل الكتاب يعتبرون أنّهم أحفاد إبراهيم،
فياليتهم كانوا أحفاده بحقّ، كما أنّ نصيباً منهم ممّن ينتسبون إلى

رسالة محمد عليه السلام يعرفون إبراهيم حق المعرفة لما يتلى عليهم من الكتاب العزيز، ولكن أتى هؤلاء من إبراهيم ومن الاقتداء به، غلبت عليهم شقوتهم، وتصور الكثير منهم ألا نجاة إلا في البعد عن إبراهيم وأمثال إبراهيم.

ولم يغفل إبراهيم لشفافية روحه وبعد نظره عن هذا المعنى فطلب من ربه أن تظل هذه الإمامة في ذريته فكان الرد من الواحد الديان أن مثل هذه الإمامة محرمة على من يدنسون أنفسهم بالظلم مهما كان نوعه، سواء كان شركا أو كفرا بنعم الله عز وجل.

وفعلا قد تدنس العالم كله بمثل هذا الظلم إذ نسبة المشركين هي الغالبة اليوم من أهل الوثنيات بجميع أصنافها، ومن أصحاب النظريات المبتدعة بكل أشكالها، وحتى من بقي من أهل الكتاب فقد أفسدوا عقائدهم، من بين مجسمة وأصحاب تثليث، أما جنابات العالم الإسلامي الفسح فهي ترزح تحت نير هؤلاء وأولائك، وقد غرقت في الموبقات، وكفر جل من فيها بأنعم الله إلا من رحم ربك عز وجل.

نعم إنها إمامة العقيدة لكن الناس قد أسقطوا حقهم فيها بما كسبت أيديهم من الضلالات والترهات، كل ذلك باسم الحضارة والمدنية والتقدم التكنولوجي كما يقولون.

﴿ اَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّٰهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(٥٧ الحديد ١٦).

ولو خشعت قلوب المسلمين بحقّ لذكر الله ، وما نزل من الحقّ
لظّلوا أولى الناس بهذه الإمامة إذ بيّن الحقّ تبارك وتعالى أنّ المدار في
الارتباط بإبراهيم لا يقوم على بنوّة النسب ، وإنّما يتمثّل في رابطة
العقيدة ، فلو وقت البشرية بما عهد إليها من كلمات في رسالة الإسلام
الخالدة التي أرسى قواعدها إبراهيم عليه السلام ، فامتثلت للأوامر
وانتهت عن النّواهي ، لنالت هذه الإمامة عن جدارة كما نالها إبراهيم
من قبل . والحلّ ما يزال في يد أمة الإسلام ، ذلك أنّ الله عزّ وجلّ
كتب على نفسه أن يحفظ كتابها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٥ الحجر ٩)

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ ؕ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(٤١ فصلت ٤١ - ٤٢).

ولم تبق هذه الإمامة مجرد تصور في حياة إبراهيم بل أبرزها الله عز وجل إلى حيز الوجود، وهياً لها المناخ المناسب في بلاد الله الحرام بعد أن حرمت منها مواطن أخرى لم يعرف أهلها سوى العناد والاستبداد .
لقد اختار الله عز وجل أن تكون بكة المكان الذي تقام فيه هذه التجربة الإيمانية الإبراهيمية الحنيفية

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾

(٣ آل عمران ٩٦).

وها هو السياق القرآني يصل إلى جنبات البيت العتيق ويبين لنا أن الله شاءت حكمته أن يجعله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً، يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وعلى عقيدتهم، ياله من بيت بسيط في مبناه، عظيم في معناه، إنه بيت الله الذي جعله للناس رمزاً ليعبد الله فيه بحق، وليجتنب الناس كل ما ألفوه من معابد لم يعرف فيها إلا الشرك بالواحد الديان.

جعل الله في هذا البيت مقام إبراهيم عليه السلام وأمر أن يتخذ مصلىً، وعهد إلى إبراهيم وابنه اسماعيل أن يطهرا هذا البيت (بיתי) للطائفين والعاكفين والركع السجود.

تلك هي العقيدة الإيمانية الراسخة تبدو متجلية في الوافدين على هذا البيت العتيق من كل فج عميق، طواف، واعتكاف، وركوع، وسجود.

فلا يلمس الإنسان في هذه الحركات البسيطة الميسورة سوى معاني الخشوع للذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وإلا كيف يتسنى للإنسان العاقل أن يظلّ في دوران حول هذا البيت، أو أن يستقرّ فيه، أو أن ينحني ويعفّر وجهه في التراب؟

تلك هي إمامة إبراهيم في العقيدة إذ علّم الناس أن الأساس ليس في تلك الحركات، وإنما الأساس فيما يكمن في القلوب من نوايا صادقة توجه كلّ ذلك بإخلاص تام للواحد الديّان.

وبذلك يصير الطّواف حركة إيمانية تجعل من الإنسان ذرّة من ذرّات الكون تلك التي ما تزال في دوران مستمرّ خاضعة لأمر باريها، ويصير الاعتكاف تصفية للنفس ممّا يلتصق بها من أدران، وسموّاً روحياً صادقاً.

ويصير الرّكّوع إخضاعاً للجسد المشرّب، تلبية لنداء رب العالمين.

ويصير السّجود وإن بدا ضرباً من الإهانة والإذلال سموّاً ليس وراءه سموّ، لأنه تذلل لله لا يكسب السّاجد المخلص إلا عزّاً على عزّ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٣ المنافقون ٨).

سلام على إبراهيم وعلى إسماعيل لأنهما فازا بسدانة هذا البيت العتيق، وانظر إليهما وهما يعملان على تطهيره وتميئته لأهل الإيمان

والصّلاح في خشوع وضراعة تأخذك أريجيّة المؤمن المخلص فتتدفّق
بين الطّائفين والعاكفين والركّع السّجود وكلّك تشعّ إيماناً تعجز عن
التّعبير عنه الألسنة والأقلام.

ماذا يا إبراهيم ؟ إنك إمام بحقّ، لقد علّمك ربّك أن هذا البيت
لن يقرّ له قرار إلّا إذا جعل الله البلد الذي يوجد فيه آمناً، ورزق
أهله من الثّمرات .

وها هو خليل الرحمن يتضرّع للرحمن بأن يجعل البلد آمناً، وأن
يرزق أهله من الثّمرات، وتتجلّى سمة العقيدة الرّأسخة في هذا
التّضرّع، ذلك أن إبراهيم يميّز بين أهل الولاية وأهل البراءة، إذ قد
يقطن أناس هذا البلد الأمين لا صلة لهم بالصّلاح والتّقوى، فلا حقّ
لهم في مثل هذا الدّعاء .

إنّه لدرس إيمانيّ صادق يعلمه إبراهيم لبنيه وللناس جميعاً، فهو
يتأدّب مع الله في دعائه غاية الأدب، ويحدّد من يعني بهذا الدّعاء،
ولذا على المؤمن الصّادق ألاّ يكيل الدّعوات جزافاً لأهلها ولغير
أهلها، وإنّما عليه أن يحترس كما احترس إبراهيم، وأن يحدّد من
يعني، وقد علّم إبراهيم البشريّة من يحدّدون في دعائهم،
﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ .

وكلّنا يعلم أن الإيمان الحقّ ليس مجرد ادّعاء وقول باللسان، وإنّما

هو عقيدة في الجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، نعم ذاك هو الإيمان الذي ما فتى الرسل والأنبياء يدعون إليه ويغرسونه في قلوب العباد عبر الزمان والمكان.

والإيمان بهذا المعنى هو الدين وهو الإسلام
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾
(٣ آل عمران ١٩).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾
(٣ آل عمران ٨٥).
وواضح أن هؤلاء هم الذين يعنيهم إبراهيم، في دعائه ويرجو الله أن يجعل لهم البلد آمناً، وأن يرزقهم من الثمرات، وفعلاً قد رزقهم من الثمرات، وما يزال ذلك بفضل الذي ليس بعده فضل، وبفضل إيمانهم الراسخ.

ويسكت إبراهيم عن الشطر الآخر، وهم الذين يجب أن يحرموا من تلكم الخيرات، فيحدده السياق القرآني الكريم
﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

البقرة ١٢٦

والكفر كما أشرنا فيما سبق قد يكون كفر شرك وقد يكون كفر نعمة بمعنى العصيان والتجرؤ على الله عز وجل بارتكاب الكبائر وعدم التورع عن الصغائر، هؤلاء جميعاً يحرمون من التمتع بما دعا به

إبراهيم عليه السّلام ومأواهم جهنّم وبئس المصير إلّا من تاب إلى الله
قبل أن يفوت الأوان وفي ذلك يقول عزّ من قائل :
﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(٥ المائدة ٣٩) .

وفي غمرة الفرحة برفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل الذي
وهبه الله له على الكبر، دون أن تغفل عن تجربة إبراهيم السّابقة مع أبيه
سادن المعبد الذي خشي أصناما، ظلّا يتضرّعان إلى الله عزّ وجلّ بقلب
منيب، فطلبوا في الدّرجة الأولى حسن القبول إذ يعلمان يقينا أنّه لا قيمة
لأيّ عمل إن لم يكن خالصا لله تعالى ، وإن لم يحظ بالقبول والرضا من
السّميع العليم الذي يسمع الدّعاء ويعلم بما وراءه من النّية الصّادقة .
ثمّ طلبا من الله أن يثبتها على ملّة الإسلام بما فيها من الاستسلام
المطلق لله عزّ وجلّ ، كما طلبا من الله أن يجعل ذلك الإسلام من
نصيب ذريّتهما، ذلك لأنّهما أدركا أنّها أمّ النّعم وأصلها، وشأن المسلم
أنّه لا يكون مسلما إلّا إذا أحبّ لغيره ما يحبه لنفسه ، وما بالك إذا
كان هذا الغير من الذريّة .

تأمل أيّها المسلم مدى حرص إبراهيم عليه السّلام ، وكذلك
إسماعيل ، على الثّبات على هذه العقيدة السّميحة ، عقيدة الإسلام التي

تجعل من الإنسان إنساناً بحق، يشعر أن قوته تكمن في إسلامه، وكذلك عزّه، وكذلك فضله، إذ لا حول ولا قوة للإنسان إلا بالله العليّ العظيم.

نعم إنه بهذا الإسلام يكون متين الصلّة بالله الذي خلقه من أجل العبادة

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

(٥١ الذّاريات ٥٦ - ٥٨).

فتجده يمثل لأوامر الله، ويقف عند جميع نواهيه مقرأ بها هياً للصّالحين من جنّات النّعيم في دار القرار، وبها أعدّ للكافرين من عذاب الجحيم بما قدّمت أيديهم في هذه الحياة.

نعم إنه بهذا الإسلام يكون مدركاً أنّه ذرة من ذرات هذا الكون الذي لا يزال كلّ ما فيه يسبح لربّ العالمين

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

(١٧ الاسراء ٤٤)

فيظلّ مسبحاً مع المسبحين، منزهاً الله عن كلّ النقائص ولا ينسب إليه إلا صفات الجلال والجمال والكمال ذلك أن الله يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير.

نعم إنَّ الإنسان بهذا الإسلام يدرك أنَّه لن يكون مسلماً بحقّ إلا إذا أحبَّ لأخيه الإنسان ما يحبّه لنفسه وسلم النَّاس من يده ولسانه، وبهذا يسمو بالمدينة المغروزة في طبعه ليكون مجتمعا إيمانياً تحسن فيه العلاقة بين الرّاعي والرّعية، وبين جميع أفراد الأمّة، نعم إنّه مجتمع الإخاء والمحبة والمودة لأنّ كلّ فرد فيه كبج من أنانيته وأسلم وجهه لله ربّ العالمين الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، في عالم الشّهادة وفي عالم الغيب .

لهذا وغيره من المعاني الكامنة في الإسلام ظلّ إبراهيم وإسماعيل يتضرّعان إلى الله عزّ وجلّ أن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمّة مسلمة .

ثم لم يغفلا عن أن يطلبوا من الله عزّ وجلّ أن يبصرهما بسبل العبادة الحقّ، هذه السّبل التي لا تدرك عن طريق العقل وإنّما تكتسب عن طريق الوحي، ذلك أنّ الإنسان عندما ترك شأنه ظلّ سواء السّبيل وعبد ما يخطر على بال وما لا يخطر على بال، والعبادة كما لا يخفى هي إخلاص العبوديّة لله عزّ وجلّ بأداء ما يأمر به من صلاة وصيام وإنفاق وما إلى ذلك ممّا اشتركت فيه جميع الرّسالات السّماويّة لأنّها تنبع من مشكاة واحدة، هي مشكاة الإسلام، لأنّ الدّين عند الله الإسلام .

ومن وجوه العبادة ما يجعل الله للإنسان من حركات رمزية تتجلى في المناسك، والمنسك طريقة الزهد والتعبّد، أو موضع تذبح فيه النسيكة أي الذبيحة، وقد جاء في الذكر العزيز

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ (٢٢ الحج ٣٤).

وصدق من قال في شأن الهدى في الحجّ

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾

(٢٢ الحج ٣٧).

كما أنّ إبراهيم وإسماعيل لم ينسيا حقيقة من حقائق الإنسان تتمثل فيما ينتابه من الغفلة والنسيان والغرور حيث يغفل عن فضل ربّه ويتبع هواه فتضرّعا إلى الله أن يتوب عليهما إن هما وقعا في المحذور، وتلك منّة ملّة الإسلام إذ لا يظلّ المخطيء تتبعه خطيئته إن هو تجرّد منها وندم على ما ارتكب، وتوجّه إلى الله بقلب منيب يطلب الغفران من الذنوب، فإنّه يجد ربّاً تواباً رحيمًا، والأساس في الإنابة وعدم الإصرار.

ثمّ إن إبراهيم بما آتاه الله من الخبرة وبعد النظر أدرك أنّ الذريّة يصعب أن تستمرّ، على ملّة الإسلام، ولا بدّ لها ممّن يجدّد لها هذا الإسلام ويحييه، لذلك تضرّع إلى الله عزّ وجلّ مع ابنه إسماعيل أن يبعث في هذه الذريّة رسولا منهم، وحدّد أبرز مهامّه كما يتصوّرها

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ البقرة ١٢٩
إنها درجة عالية في التصور ولا غرابة في ذلك لأن إبراهيم مؤيد
بالمدد الرباني، فهو يعلم علم اليقين جميع مقتضيات الرسالة : آيات،
كتاب، حكمة، كلها ترمي إلى تزكية النفس البشرية وتطهيرها.

وبعد قرون وقرون يستجاب الدعاء، ويرسل محمد ﷺ ليحيي ما
اندرس من الحنيفية السمحة، وسط جيل تقاذفته رياح الشرك وهو
يحسب أنه على ملة إبراهيم، وفعلا تلا على قومه وعلى العالمين ما
يتنزل عليه آناء الليل وأطراف النهار من الآيات البينات، وكان
الكتاب قرآنا، وكانت الحكمة في كل عقيدة وقول وعمل إلى أن زكا
من زكا من تلكم الذرية ذرية إبراهيم باعتناقهم ملة الإسلام التي
أرسي قواعدها إبراهيم في نفس الربوع منذ أمره ربه أن يقيم مع ابنه
القواعد من البيت، وانطلقت راية الإسلام من هنالك لتعلو خفاقة
في أطراف العالمين، نعم ذلك فضل الله ، وتلك بركات دعوات
الخليل إبراهيم عليه السلام، سلام على إبراهيم إنه من عباد الله
المحسنين، وأي إحسان أسمى من هذا الإحسان الذي أسداه إبراهيم
لل بشرية جميعا، ولا غرابة في ذلك إنه الأب الحنون الذي اصطفاه ربه
فجعله إماما وقدوة لا يقود الإنسانية إلا لما فيه خيرها، ولن يكون
خيرها إلا في الإسلام.

فيا ويل لتلكم الذرية الذين رغبوا عن هذه الملة السمحة، وعزفوا عنها واستبدلوها بنظريات البشر أو أديانهم الوضعية الضالة المضلة، يا ويلهم لأنهم فضلوا السخف على الرشاد، وذلك لضعف أحلامهم رغم ادعائهم أنهم قمة في الإدراك العقلي القويم، نعم إنهم سفهوا أنفسهم وغرّتهم الأمانى وإذا بعالمهم عوض أن يكون عالم إسلام وسلام كان عالم عناد ودمار، انقلبت فيه القيم، وسيطر عليه قانون الغاب، حيث صار القوي يتلع الضعيف، صحيح أنهم بعقولهم طاولوا النجوم، وصنعوا العجب العجائب في عالم المادة، لكنهم من الروح خلاء، وما قيمة الآلة الصماء إذا لم تكن خاضعة لقيم روحية سامية، نعم إن ضرّها لن يكون إلا أكثر من نفعها، وهذا ما تتجرّع البشرية مرارته اليوم، ذلك هو منتهى السّفه والسّخف، وبالبتّ هؤلاء جميعاً رغبوا في ملة إبراهيم عوض أن يرغبوا عنها، لأنّ الله اصطفى صاحبها في الدنيا وبين أنّه في الآخرة من الصّالحين، هذه الملة التي استجاب الله فيها لخليله، وأحيّاها لتكون الرّسالة الخالدة عبر الزّمان وعبر المكان إلى أن تقوم السّاعة، وجعل معجزتها قرآنا ذخراً فيه كلّ ما تحتاج إليه البشريّة في علاقتها مع بارئها، وفي علاقاتها المادية والمعنويّة في ما بينها، لتكون بشريّة مسلمة تحقّق للإنسان إنسانيّته الكاملة، وذلك لما اشتمل عليه الإسلام من تناسق بين الطّاقة الجسديّة والعقليّة والروحيّة في هذا الإنسان.

ويستمرّ السّياق القرآنيّ ملحاً على مدى قيمة هذا الإسلام فيؤمّر إبراهيم أن يسلم فيقول : ﴿ أسلمت لربّ العالمين ﴾
وكذلك يظلّ أبناؤه وأحفاده يوصي بعضهم بعضاً بالإسلام والإخلاص في العبادة لله ، ويقرّ الجميع أنهم مسلمون
﴿ ونحن له مسلمون ﴾ .

ثم يمضي السّياق لينفي عن إبراهيم زعم اليهود والنصارى ،
ويحقّق أنّه كان حنيفاً مسلماً وما كان مشركاً ولا يهوديّاً ولا نصرانيّاً كما
سبق أن بيّنّا ، ويثبت أنّ الإسلام هو
﴿ صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ﴾

والم تأمل في هذه الآيات التي تفوح بذكر إبراهيم ، وتثبت يده
البيضاء على أمة الإسلام يتبيّن أنّها تؤكد بحقّ على أنّ الدّين عند الله
الإسلام ، وهاك عدد ورود هذه الصّيغة في هذه الآيات التي لم يبلغ
عدها العشرين (مسلمين ، مسلمة ، أسلم ، أسلمت ، مسلمون ،
مسلمون ، مسلمون) .

إنّ هذه الصّيغ المختلفة توحى بحقيقة ثابتة تتمثّل في أنّ هذا
الإسلام ليس من اجتهاد فرد حتى وإن كان إبراهيم ، وإنّما هو أمر من
الله وعطاء من فضله ، شاءت حكمة ربّنا أن يتحوّل إلى حيّز الواقع
عن طريق إبراهيم الذي امثّل للأمر واستوعب الوحي فاستجاب الله

لدعائه وجعل في ذريته أمة مسلمة لله إذ ما فتىء الصالحون منهم (من آمن منهم) يقرّون عقيدة وقولا وعملا أنهم مسلمون (ونحن له مسلمون) إلى أن شاءت حكمة الله عز وجل أن توقف إرسال الرسل فكان مسك الختام بسيد الأنام الذي كمل على يديه الإسلام

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(٥ المائدة ٣).

ذلك فضل الله، وليس للإنسانية اليوم إلا أن تكرر من معينه الصافي إن أرادت الفوز في الدارين، دار العمل ودار الجزاء.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ العالمين﴾

وها نحن قال لنا ربنا أسلموا فلنقلها صريحة صادقة كما قالها إبراهيم وكما قالها إسماعيل، وكما قالها إسحاق، وكما قالها يعقوب، وكما قالها الأسباط، وكما قالها موسى، وكما قالها عيسى، وكما قالها محمد، وكما قالها غيرهم من الأنبياء، والمرسلين والصالحين ثم عرفنا الله وممن لم نعرف : ﴿أسلمنا لربِّ العالمين﴾.

وبهذا يتجلى أنّ إبراهيم نموذج للعبد المسلم الصالح الذاكر الشاكر، ذاك أنّ كل معتقده وأقواله وأعماله خاضعة خضوعا كاملا لسمات العبد المسلم.

يأمره الله عزّ وجلّ أن يسكن من ذريته بواد غير ذي زرع فلا يتردد لحظة بل يتحوّل بزوجته وفلذة كبده ذاك الذي رزقه الله إياه على الكبر، ويلقي بهما في جبال بكّة وهو يقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير، ذاك هو الإسلام الحقّ، وإن بدا الأمر بعيدا عن المعقول في منطق الإنسان المحدود الضيق، لكنّها حكمة الله الذي قدر فهدي، ولم يكن أمره عبثا، وإنّا أراد بعبده المسلم خيرا حينما ابتلاه مثل هذا الابتلاء وهو عليم بضعفه البشريّ وبصموده الإيمانيّ، فصمد إبراهيم وكان مسلما بالعمل فكرّمه الله بفضله بأن جعل هذا الوادي الذي لا زرع فيه، هذا الوادي الذي يحيط به الجبال السّود من كل مكان، وكلّ شيء فيه ينبىء بالهلاك والموت، موضعا لأوّل بيت يعبد فيه الله بحقّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُزَكِّيهِمْ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۝﴾

(٣ آل عمران ٩٦ - ٩٧).

كما أنّ هذا الإسلام ينعكس على تلکم الزوجة التي لم يكن منها إلاّ لتسلم أمرها لربّها ولزوجها، وإذا بها مع رضيعها تسعى بين جبلين أخشين بين الصفا والمروة، وقد أضناها الجوع والعطش وكادا يذهبان برضيعها وبها، ولكنّه الإسلام لله عزّ وجلّ تتجلّى بركاته لأن الله يبتي ولا يفرط في عباده الصّالحين، وفي اللّحظة الحرجة يتدفّق معين الحياة

من تحت قدمي الولد الذي كان على أبواب الهلاك، إنّه ماء زلال، وما قيمة ركض ولد رضيع في جبل قدّ من الحجارة الصّماء، إنّها عين الله ترعى الذين يسلمون أمرهم لله مخلصين له الدّين، فالإسلام الخالص هو السرّ في انطلاق الحياة في تلکم الربّوع بمكة المكرّمة، تدفق الماء وعمر المكان بأمر من الله إذ لا حياة للإنسان بدون ماء، فمنه يشرب وبه يغتسل ويتطهر، وباختلاطه بالأرض تربو وتنبت ما يحتاج إليه الإنسان والحيوان لتستقيم لهما الحياة، واستقامت الحياة هناك، لكن ماذا بعد هذا؟

ذلك سرّ الحياة المادّية لكن لا قيمة لها بدون طاقة روحية، وإبراهيم بذلك عليم، ويأتي أمر الله برفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل، فيمثّلان مسلمين لله ربّ العالمين وكلّهما ضراعة وشكر لله عزّ وجلّ الذي حوّل حياتهما من عسر إلى يسر، وكلّ ما جاء من الله يسر بالنسبة إلى المسلم الرّبّانيّ، فيضرعان لله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يجعل البلد آمناً وأن يرزق من آمن من هذه الذرية من كلّ الثمرات، ويستجاب الدّعاء، ويكون خاتم الأنبياء في تلکم الربّوع المباركة التي لم يتحرّك فيها شيء إلّا بالاستسلام الكامل لله ربّ العالمين.

ويكرّم إبراهيم ببركات إسلامه فيؤمر بأن يؤدّن في الناس بالحجّ

ليأتوا رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق، وإذا بالمكان تكتنفه القداسة الإلهية وتهوي إليه الأفئدة من كل أنحاء المعمورة، نعم يسلم إبراهيم فينادي وليس بين يديه آلة تبليغ الصوت، ولكنه يحمل قلبا يعلم أن الله على كل شيء قدير، وإذا برواد بيت الله الحرام يلبون النداء وهم في عالم الغيب، وكل حسب ما قدر الله له من أداء زيارات لهذا البيت المعمور، نعم إنه الإسلام قبول خالص لأمر الله وبدون أي تردد.

إلى هذا الحد صحبت الإسلام سلامة في الظاهر والباطن، ولكن تأتي الرؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي

﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى﴾^{١٠٤}

(٣٧ الصافات ١٠٢)

إن الإسلام في هذه المرة ليس بالأمر الهين في مقياس البشر العاديين بل إنه ضرب من الإجرام الذي ليس بعده إجرام، اذ كيف يقبل الإنسان على ذبح ابنه لمجرد رؤيا في المنام؟

هل يتلجلج الأب، أو يصرخ الولد، كلاً إنه الإسلام وكفى

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِّرْهُمَا ۝١٠٤ قَدْ

صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَذَا لَهُوَ

الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾

(٣٧ الصافات ١٠٣ - ١٠٧).

يمرّ الأب المديّة المسنونة فلا تفعل فعلها كما لم تفعل النار من قبل فعلها وكانت بردا وسلاما، تلك ثمرات الإسلام تتجلىّ واحدة بعد أخرى في سيرة هذا الذي جعله الله إماما واتّخذة خليلا، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر.

ولقائل أن يقول لسنا من المعصومين لنبلغ مثل هذه الدّرجات، والجواب: على قدر عمق العقيدة يكون الابتلاء، والمهمّ في الإسلام والاستسلام.

ثمّ تتكامل سمات الإسلام في جنبات هذا البيت العتيق بما أمر الله إبراهيم أن يقيم من شعائر أبرزها الطّواف وذبح الذّبائح، كلّ ذلك ليزداد الحجاج تقوى وقدرة على الإسلام الحقّ.

ولم يكن إبراهيم كما علمنا أنانياً في إسلامه بل جعلها كلمة باقية في عقبه واختار لهذا العقب الذي عمر الرّبوع المقدّسة أفضل الأسماء ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (٢٢ الحجّ ٧٨).

يا لها من تسمية زكيّة تسمو بصاحبها لتجعله على صلة مباشرة مع خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم وعدله وسوّاه.

وإنّ أمة محمد ﷺ لجديرة بهذه التسمية وبهذا الانتساب بشهادة القرآن الكريم :

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

(٣ آل عمران ٦٨).

ولنعلم علم اليقين أننا لن نكون جديرين بهذا الانتساب وبهذه التسمية إلا إذا كنا مسلمين قلبا وقالبا .

وقد بقيت بصمات هذه الرابطة الإسلامية بين الجدّ وبين الحفيد وأتباعهما في كلّ ما فرض على أتباع الحفيد، وبصفة أدقّ في الركن الخامس من أركان الإسلام ألا وهو الحجّ إلى البيت العتيق .

ومعلوم لدى كلّ مسلم أنّ في كلّ حركة من حركات هذه الفريضة وسكناتها تتجلى سمات الاستسلام والطاعة، إنه يرحل، ويطوف، ويصليّ خلف المقام، ويقبل الحجر، ويشرب من زمزم، ويسعى بين الصفا والمروة، ويصعد لمنى، ويقف بعرفات ويقف عند المشعر الحرام، ويرجم، ويذبح، ويحلق، وهو في ذلك لا يرتدي من اللباس إلا أقلّه، نعم إنه يفعل كلّ ذلك إسلاما لربّ العالمين، وطاعة لما فرضه عليه من حجّ .

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ

اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

(٣ آل عمران ٩٧).

بهذا الإسلام في أداء هذه الفريضة يتكوّن للمسلمين مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتنظيم ذلك العالم

الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام، في ظلّ الله،
بالقرب من بيت الله، وفي ظلّ الطّاعات البعيدة القريبة والذكريات
الغائبة الحاضرة في أنسب مكان وأنسب جوّ وأنسب زمان.

وبهذا وغيره ندرك كيف أنّ الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات،
ويتوجّه بها كلّها إلى الله، ومن ثمّ يعنى بتوجيه الشّعور والعمل
والنشاط والعبادة، والحركة والعادة إلى تلك الوجهة الواحدة، وبذلك
تصطبغ الحياة كلّها بصبغة العقيدة صبغة الإسلام.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(٢ البقرة ١٣٨).

وهكذا لا يخطو المسلم في حياته خطوة ولا يتحرّك في ليله أو نهاره
حركة إلا وهو ينظر فيها إلى الله، ويجيش قلبه فيها بتقواه، ويتطلّع
فيها إلى وجهه ورضاه، فإذا الحياة كلّها عبادة تتحقّق بها إرادة الله في
خلق العباد وتصلح بها الحياة في الأرض وهي موصولة بالسماء،
وصدق إبراهيم حيث قال :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(٦ الأنعام ٧٩).

٣ - إنها الحنيفية السمحة

ذلك هو الإسلام ملة إبراهيم ، وهو أيضا الحنيفية السمحة ، وإن تكررت مادة س . لم . د . في قصة إبراهيم فقد تكررت أيضا مادة ح . ن . ف وذلك فيما يلي :

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ ﴾ (٢ البقرة ١٣٥).

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ۖ ﴾ (٣ آل عمران ٦٧).

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ ﴾

(٣ آل عمران ٩٥).

﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ ﴾

٠ (٤ النساء ١٢٥).

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ ﴾

(٦ الأنعام ٧٩).

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ ﴾

(١٦ النحل ١٢٠).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ ﴾

(١٦ النحل ١٢٣).

كما جاء الخطاب موجها للرسول محمد عليه السلام أن يقيم وجهه
للدين حنيفا

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١٠ يونس ١٠٥).

ولا يخفى أن الحنيفية في اللغة هي الميل، والمعنى أن إبراهيم حنف
إلى دين الله أي دين الإسلام، وقد جاء في الحديث الشريف :
(أحبّ الأديان إلى الله الحنيفية السمحة).

وصدق من قال :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

(٤ النساء ١٢٥) :

وكيف لا يكون أحسن وهو الذي شرع الله تعالى للعالمين كما جاء
في قوله :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

(٤٢ الشورى ١٣).

فليس للمسلمين اليوم إن أرادوا الفلاح في الدارين إلا أن يكونوا

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (٢٢ الحج ٣١).

حنفاء لله في تصوّرهم الإيماني فلا يلجأون إلا إلى الله ولا يستعينون إلا به في الصّغيرة والكبيرة، حنفاء لله في تصوّرهم السّياسي فلا ينهلون إلا من معين كتابة ومن هدى سنة نبيّه عليه السّلام، حنفاء لله في تصوّرهم الاجتماعي يقيمون مجتمع الاخاء والمودت، مجتمع الأمن والسّلام، حنفاء لله في تصوّرهم الأخلاقي لأنّ رسولهم إنّما بعث ليتمّم مكارم الأخلاق، حنفاء في تصوّرهم الاقتصادي يحلّون البيع ويحرمون الرّبا ويدركون أنّه

﴿ وَيَلِلْمُطَفِّينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ۞ ﴾

(٨٥ المصطفين ١ - ٣).

حنفاء لله في تصوّرهم الثّقافي الشّامل يقيسون كلّ ما ينتجون وكلّ ما يفسد عليهم بميزان الله الذي يفضح كلّ فكر لا يأتي إلا لنشر الفساد، وأخيرا وليس بآخر حنفاء لله في تصوّرهم للحياة الدّنيا على أنّها دار عمل تعقبها دار جزاء.

هكذا كان محمد ﷺ حنيفا، وهكذا كان أصحابه الذين هاجروا معه والذين ناصرّوه حنفاء لله غير مشركين به في كل حركاتهم وسكناتهم ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ۝ ﴾ (٨٩ البينة ٥). ديدنهم آناء اللّيل وأطراف النّهار أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكان ذلك بحقّ في مجتمع المدينة الفاضلة مدينة رسول الله ﷺ، تلك التي أشعّ منها نور الحنيفيّة السّميحة في ربوع العالمين وما يزال.

المحور الثالث

من ثمرات العقيدة الرأسخة

لقد علمنا ممّا سبق أن إبراهيم أرسى أسس كلمة التوحيد لا إله إلا الله حيث حارب كلّ المعبودات المزيفة وضحّى من أجل ذلك بنفسه، وأقرّ أن الله هو المعبود بحقّ فأسلم إليه جسده وعقله وروحه، وفي هذا عبرة لكلّ من يريد أن يعتبر.

وبعد ثبوت هذا المعنى تعالى معي - يا طالب الاستقامة - نعش لحظات في ظلال القرآن الكريم عبر ما ورد فيه عن إبراهيم عليه السّلام، ولنبحث معاً نسب الله عزّ وجلّ من صفات تزيد عقيدة المسلم رسوخاً على رسوخ.

إنّ مثل هذا البحث يسفر عن حقيقتين جليّتين :

الأولى : أنّ إبراهيم عليه السّلام لم يخطر بباله ولو للحظة أن يفكر في حقيقة الخالق، وذلك لسلامة فطرته إذ أدرك ألاّ سبيل للمحدود أن يدرك كنه اللّامحدود.

الثانية : أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يستجلي عظمة الله من خلال صفاته وأفعاله، ناهيك أنّه بكلّ دلال رجا من الله عزّ وجلّ أن يريه كيف يحيي الموتى ليطمئنّ قلبه، وفعلاً كما بينّا فيما مضى مكّنه الله تعالى من ذلك حسب ما تستوعبه طاقة الإنسان المحدودة، فماذا عمّا ورد في قصة إبراهيم عليه السّلام عن أسماء الله وصفاته الذاتيّة والفعليّة فيما يتعلّق بالكون وبالإنسان وبالأنبياء والرسل وبالأخرة؟

١ - عظمة الله عز وجل في تصريف الكون

قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(٦ الأنعام ٧٥).

وقال :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾

(٤ النساء ١٢٦).

وقال :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

٠ (٦ الأنعام ٧٩).

وقال : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

(٦ الأنعام ٨٠).

وقال : ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(٦ الأنعام ١٦٤).

وقال : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا
مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(٢ البقرة ٢٥٨).

إنّ مثل هذه الآيات لا تحتاج إلى شرح كبير ذلك أنّ المعبود الذي يدعو إبراهيم الناس إلى عبادته يستحقّ وحده أن يعبد بحقّ، ذلك أنّه هو الذي فطر مخلوقات تكبر في عين الإنسان وهي السموات

والأرض، أي أنه أبدع الكون كله من عدم وبدون سابق مثال، وهو بذلك القادر على تصريف ما في هذا الكون، يعلم فيه ما ظهر للناس وما بطن، وكلمة ملكوت تشير إلى ما وراء هذا الكون من عالم الغيب، هذا العالم الذي يطلع الله المصطفين من عباده على بعض ما فيه من الأسرار، يطلع الله المصطفين من عباده على بعض ما فيه من الأسرار.

إنه سبحانه ربّ كلّ شيء، ووسع كل شيء علما.
سبحانه الله أعم كل هذا يجرؤ الإنسان، وهو ذرة من ذرات هذا الكون، على الله فينكر وجوده أو لا يعترف بفضله كما فعل ذلك الجاحد أمام إبراهيم حين ادّعى أنه يحمي ويميت، فلما بين له إبراهيم أن الله يأتي بالشّمس من المشرق ودعاه إلى أن يقلب الوضع ويأتي بها من المغرب لم يكن منه إلا أن اندحر على نفسه ولم يأل جوابا.

فتعسا ثم تعسا لأولئك الذين ما يزالون عبر المكان وعبر الزّمان ينكرون عظمة الخالق المتجلية في آثار خلقه لهذا الكون، فهل استطاع واحد منهم أن يقلب ناموسا واحدا من نواميس هذا الكون؟ ونحن نعلم أنهم مهما أوتبوا من علم لم يكن لهم إلا أن يتبهاوا لبعض النواميس الإلهية التي لا يكابر أمامها إلا جاحد، وحقيق بأهل القرن العشرين اليوم وقد اهتموا إلى ما لم يهتم إليه غيرهم من هذه النواميس

الكونية أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يعودوا إلى الله الذي وسع كل شيء
علما إن أرادوا أن يفوزوا في الدارين، وإن أرادوها متعة ظاهرة في
الدنيا فلن ينجوا إلا الندم يوم تبدل الأرض غير الأرض وتطوى
السموات كطي السجل للكتاب، ويندثر الكون كله، وتقوم الساعة،
ويكرم من يستحق التكريم، ويهان من كان يستهين بالله وبدينه .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ

مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ

وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

(١٤) إبراهيم ٤٨ - ٥١).

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ

خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

(٢١) الأنبياء ١٠٤).

٢ - عظمة الله وفضله يتجلىان في الإنسان

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾

(٤٣ الزخرف ٢٦ - ٢٧).

وقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٢٦ الشعراء ٧٨).

وقال : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْحِي وَيُمِيتُ ﴾ .

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَانَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

(٢١ العنكبوت ١٩).

وقال : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ

مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ (البقرة ١٢٦).

وقال : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا

فَاَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾

(٢٩ النعكبوت ١٧).

وقال : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ

مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ﴾

(٢٢ الحج ٢٨).

وقال :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي
عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ

(١٤ إبراهيم ٣٨ - ٤٢).

وقال : ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ (١٤ إبراهيم ٢٦).

وقال : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي ﴾ .

(٦ الأنعام ٨٠).

وقال :

﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(٩ التوبة ٧).

وقال : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ

﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ

﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ

يُحْيِيْنَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِيْ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِيْ خَطِيئَتِيْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

(٢٦ الشعراء ٧٥ - ٨٢).

بمثل هذه الآيات وغيرها مما جاء في سياق قصة إبراهيم وغيرها في الكتاب العزيز يتبين الإنسان فضل الله عليه، ذلك أنه هو إلهه وهو ربه الذي لولاه لما أمكن له أن يوجد إذ هو الذي فطره وخلقه بعد أن لم يك شيئاً، ومعلوم أن كل ما يأتي من نعم بعد ذلك يترتب على هذه النعمة الأولى ألا وهي نعمة الوجود، نعم إن الله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين، لذلك ليس على الإنسان إلا أن يتغني عنده الرزق، ألم يقل إبراهيم : الذي يطعمني ويسقين ؟ وكل رزق في هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن ينتفع به الإنسان إلا إذا كان شعبان مما يهب الله من الطعام على اختلاف أنواعه مما تنبت الأرض أو مما أحل الله من اللحوم، وكان رياناً مما ينزل الله من ماء، أو مما يدخر منه في باطن الأرض.

ماذا يريد الإنسان بعد ذلك ؟ ليس له إلا أن يلتمس الهداية من واهبها، واستمع إلى إبراهيم كيف يتكرر على لسانه هذا المعنى ﴿الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ ، فالإنسان في هذه الدنيا في ابتلاء مستمر ولم يسلم من ذلك حتى الصفوة من الأنبياء والرسل ﴿إن هذا هو البلاء المبين﴾ ، فليس له

والحال هذه إلا أن يخلص العبادة لهذا الربّ العظيم ، فيمثل لأوامره وينتهي عند نواحيه لأنّه يدرك تمام الإدراك بفطرته السّلمية وعقله الواعي أنّ الله هو الذي يحيي ويميت ، وهو الذي يبدىء ويعيد ، وهو الذي ينفع ويضرّ ، وهو الذي يعلم ما يخفي الإنسان وما يعلن وأنّه ليس بظلام للعبيد ، هناك مع أعمال العبادة كلّها يتوجّه إلى الله بالدّعاء وهو موقن غاية اليقين أنّ الله يسمع لدعائه ، وأنّه يتقبّل منه هذا الدّعاء فيقضى جميع حوائجه ، ويغفر جميع ذنوبه لأنّه ربّ غفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحا وكان من المسلمين .

تلك هي صلة الإنسان المسلم بربّه ، عبوديّة مطلقة لا تزيده إلا عزّاً لأنّه يدرك أنّ الله الذي لا إله إلا هو ، هو الواحد في ذاته لا قسيم له ، وهو الواحد في صفاته لا شبيه له ، وهو الواحد في أفعاله لا شريك له .

ذلك هو التّصوّر الإيماني الذي يحتاج إليه العالم اليوم هذا العالم الذي سلبت المادّة فيه عقول من يزعمون أنّهم سادة المفكرين ، ولكنّهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا وهم في الحقيقة في ضلال مبین ، وضلالهم ما يزال ينكشف للبشريّة التّائهة يوما بعد يوم ، لأنّهم التمسوا الهداية

من غير باريها ، وقد صدق إبراهيم حيث يقول

﴿ إِنِّي بَرَاءٌ تَمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ .

نعم إنَّ البشريّة اليوم في حاجة إلى أن تقف وقفة تأمل عند موقف إبراهيم هذا أمام قومه ، إنَّها البراءة تَمَّا يعبدون ، إنَّها العداوة للزيف الذي بَلَد عقول القوم وأفسد طباعهم ، وإن كانت البشريّة اليوم في عالمها المتحضر لا تعبد أوثانا كأوثان قوم إبراهيم ، ولا نجوما وأفلاكا - مع العلم أنَّه ما يزال على وجه البسيطة من هذا الصَّنَف كثير بل لعلَّ العدد الأوفر من البشريّة على هذه الشاكلة - بل استبدلت عنها معبودات أخرى ومن شكل آخر مفر يكشف تتابع الأجيال عن زيف ما كان المعبود الأسمى لدى الجيل السابق ، فكم ألّه النَّاس النظرية الماركسيّة من ١٩١٧م إلى ماض ليس ببعيد! وإذا بواقع أهلها اليوم يصرخ أنَّ سبعين سنة من التجربة تبين أنَّها سراب في سراب ، مع العلم أنَّ هذه الماركسيه قد أثبتت أنَّ الليبرالية التي سبقتها سراب في سراب ، وليست إلَّا ضروبا من الاستغلال والاستعباد .

نعم صدق إبراهيم ، ليس على المسلمين إلَّا أن يقولوا مخلصين «إننا براء تَمَّا تعبدون» إلَّا الذي فطرنا فإنَّه سيهدينا .

وفعلا عند ما تمّت الهداية من عند باريها للرّعين الأول من المسلمين من أصحاب الرّسول محمد ﷺ لم ينتشر في العالم إلَّا السّلم والسّلام والرّخاء ، ولم يكن من النَّاس إلَّا أن دخلوا في دين الله أفواجا ، ولكن غفل خلف هؤلاء عن المسلك السّويّ ، وعاد النَّاس إلى التّيه إلَّا من رحم ربّك ، والله في خلقه شؤون .

٣ . حاجة الإنسان إلى الوحي

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(٢ البقرة ١٢٩).

وقال : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(٢ البقرة ١٣٠).

وقال :

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلَاسْبَاطٍ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(٢ البقرة ١٣٦).

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(آل عمران ٣٣ - ٣٤).

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(٣ آل عمران ٨٤).

وقال: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَهُمْ
مُلْكًا عَظِيمًا ﴾

(٤ النساء ٥٤).

وقال :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
مِّن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٦٥﴾ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(٤ النساء ١٦٣ - ١٦٦).

وقال : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦ الأنعام ٨٣).

وقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لَيْسَتِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(الأحزاب ٨٧)

وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾

(٨٧ الأعلى ١٨ - ١٩).

نعلم من هذه النصوص القرآنية الكريمة أن الله اصطفى إبراهيم واجتباها وأوحى إليه وأنزل عليه صحفا، كما نعلم أن إبراهيم نفسه تضرع الى ربه عندما امثل لأمره ورفع القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل في مكة المكرمة أن يبعث في أهلها رسولا منهم .

وإذا علمنا أن الله اصطفى آدم من قبل واستجاب لدعاء إبراهيم فأرسل سيدنا محمدا وجعله خاتم النبيين والمرسلين ندرك أن فضل الله على الإنسان عظيم، ذلك أنه لم يكله إلى نفسه، وإنما تكرم عليه واختار له بشرا من جنسه، وأيدهم بالوحي ليبقى هذا الإنسان على صلة بربه عبر الزمان وعبر المكان.

إنّ هؤلاء الأنبياء والرّسل بعد أن أخذ الله منهم الميثاق شاءت حكمته أن يجعلهم مبشّرين ومنذرين، وقد أيّدَهم في أداء وظيفة التبليغ بمعجزات تتناسق وما برع فيه أقوامهم إلى أن كانت معجزة الرّسول محمد قرآنا عربيا مبينا عجز القوم عن أن يأتوا ولو بآية من مثله رغم طول باعهم في فصاحة اللّسان.

وفعلا إنّ الإنسان لفي أشدّ الحاجة إلى من يأخذ بيده ليحافظ على سلامة فطرته، وقد علمنا من قبل كيف سعى إبراهيم إلى تطهير فطرة القوم لما ألّم بها من دنس الشّرّك، وإلى أن يربط بين فطرتهم وبين إدراكهم الواعي، فخاطبهم بما يفهمون، وحاول أن يتدرّج بهم إلى الاعتراف بالربوبية لله الواحد الديان، فبشّرهم بما ينتظر المسلمون لربّ العالمين من طمأنينة في الحياة الدّنيا، وسعادة في الدّار الآخرة، وأنذرهم بما ينتظر الكافرين من فزع نفسيّ في هذه الحياة الدّنيا، ومن عذاب أليم في دار القرار، واستمرّ عليه السّلام في دعوته مؤيّدآ من ربّ العزة رغم طول العناد إلى أن ألّقوه في الحميم وكانت النّار عليه بردا وسلاما، ومع ذلك غلبت عليهم شقوتهم ولم يؤمن له إلّا لوط، معنى ذلك أنّه ليس على الرّسول إلّا البلاغ، وفعلا فقد بلغ الأمانة، وأدّى الرّسالة، ثم هاجر إلى ربه وانتقل بأمر من الله إلى موطن آخر ليستمرّ في الدّعوة إلى الله.

واستمع إلى إبراهيم وهو يحدّد عن بيّنة وظيفة الرّسل عندما دعا الله عزّ وجلّ أن يبعث في أهل مكّة رسولا منهم، إنّه يتلو الآيات، إنّه يعلم الكتاب، إنّه يعلم الحكمة، إنّه يزكّي الناس، وقد استجاب الله لندائه، وأرسل بعد مئات السنين محمدا ﷺ نبياً رسولا في مكّة المكرّمة ليكون رحمة للعالمين.

نعم لقد تنزّل عليه الوحي، وتمّ اللقاء بينه وبين ملك الوحي فرآه على صورته الحقيقية ملكا كريما، وجلس إليه على صورته البشريّة، واستمع إليه كما يستمع إلى صليل الجرس، وإذا بها في كل الأحوال آيات تنزّل فيرتّلها هذا النّبي الأُمّي آيات بينات بلسان عربي بين تقوى صلة الإنسان برّبّه، وتصلح من أحواله ليفوز بمرضاة رب العالمين، وتكامل هذه الآيات فيما بينها فإذا به كتاب، نعم إنّه الكتاب الذي أَراده الله هدى للعالمين، إنّه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكتب الله على نفسه أن يحفظه.

لقد علم إبراهيم — وهو الخبير بحقيقة الرّسالة — أنّ البشريّة تصبو إلى الحكمة، وذلك بتنزيل الأمور منازلها الحقيقية لتستقيم الحياة، فرجا من الله عزّ وجلّ أن يكون هذا الرّسول معلّم الحكمة، وفعلا لقد كان ذلك لأنّه وارث الرّسالات جميعا ومحدّد ما اندرس من ملّة الإسلام، فكان دينه الدّين الحقّ عند الله

﴿إن الدّين عند الله الإسلام﴾.

وهل نستطيع آية حكمة بشريّة مهما كانت صينيّة أو هنديّة أو

فارسيّة أو روميّة أو رومانيّة أو عربيّة أن تظاهى حكمة الإسلام، لا والله لأنها جميعاً من عطاء الإنسان المحدود، بينما حكمة الإسلام من عطاء الله الحيّ القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الغنيّ عن العالمين .

وقد تجلّت حكمة الإسلام في بساطة العقيدة وسلامتها : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، إنها بيعة تحوّل وجهة الإنسان من التعدد إلى التوحيد ليدور في فلك الكون كلّهُ، ألم يقل إبراهيم من قبل ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ﴾ .

وبتحوّل هذه الوجهة تتجلّى حكمة الإسلام في كلّ ما ينبني على ذلك من قول وعمل ، فإذا بذلك الإنسان الذي كان يحرك لسانه بدون قيد ولا شرط يلتزم - والله الذي لا تخفى عليه خافية عليه رقيب - بألا يقول إلاّ خيراً في السرّ والعلن .

وإن أخطأ سرعان ما يثوب إليه رشدة من تلقاء نفسه فيستغفر الله ويقلع بسرعة عما صدر منه .

وكذا الأمر بالنسبة إلى العمل سواء أكان من باب العبادات أو المعاملات ، فإذا به يصليّ مخلصاً لله عزّ وجلّ فتنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، وإذا به ينفق سخاءً ليتمّ التكافل في المجتمع ، وإذا به يتعايش في إخاء مع الآخرين لأنّه يدرك أنّه لن يتكون وجهته للذي فطر السّموات والأرض بحقّ إلاّ إذا أحبّ لأخيه ما يحبّ

لنفسه ، كما أنه إن غلبت عليه شقوته وأخطأ في باب التعامل تفرض عليه حكمة الإسلام أن يتوب ويرجع لأنه يدرك أنه إذا وقع التّفطن إليه يقام عليه الحدّ، وإن مرّ في هذه الدنيا بسلام فإنّه لن ينجو بين يدي الله يوم يكشف الغطاء في دار الجزاء .

تلك حكمة الإسلام ، رباط وثيق بين عالم الغيب وبين عالم الشّهادة، وبين دار الجزاء ودار العمل في ظلّ عقيدة راسخة في أنّ الأمر لله من قبل ومن بعد، وأنّ الله لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء .

وليس الغرض من الآيات والحكمة في الرّسالات إلّا تزكية الإنسان وتطهيره بما يعلّق به من أدران في مسيرة الحياة الطويلة بمقياس البشر، القصيرة عند الله .

وفعلا فقد طهر الإسلام الجزيرة العربيّة والعالم من بعد تمارسا فيه من الشّرك وما دونه من جميع أنواع الكفر بنعم الله عزّ وجلّ .

نعم إنّهُ عمل عقدين من الزّمن ونيف في التّزكية والتّطهير حول وجهة الجزيرة العربيّة تحويلا جذريّا وصار العرب أمة زكيّة تعلّم النّاس ألا فرق بين عربيّ وغير عربيّ إلّا بالتّقوى ﴿إِنْ أَكْرَمَ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فتعانقت الأجناس والشّعوب لتتعاون جميعا على نشر الإسلام في أطراف المعمورة، وإذا بالطّهر يحلّ حيث يحلّ الإسلام،

ولن يزال الأمر على هذه الحال ما أخلص المسلمون لإسلامهم في كل زمان ومكان .

وبهذا ندرك أن إرسال الرّسل وتأييدهم بالوحي لم يكن مجرد ادّعاء من هؤلاء النّاس كما يزعم الزّاعمون الذين لم يكن منهم إلا أن يصنّفوا هؤلاء الرّسل في مصافّ العظماء ، هذا بالنّسبة إلى المنصفين منهم ، أمّا البقية فلم يكن منهم إلا التّكذيب ، وإنّما هي حكمة الله ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرّسل ﴾ .

ذلك فضل الله على هذا الإنسان الذي جبل على الخطأ والصّواب ، وعلى التّمييز بين الخير والشرّ ، لم يتركه الله عز وجلّ يخوض محنة الحياة بنفسه ، وإنّما تكّرم عليه بعباد مثله اصطفاهم وأوحي إليهم ليكونوا قادة العالم إلى ساحل النّجاة ، فمن أراد السّلامة فما عليه إلا ، أن يسلك مسلكهم ويهتدي بهديهم لأنهم بنور الله يستنبرون ، ودين الله ينشرون ، وإخوانهم يبشرون وينذرون

﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاغُ الْمُبَيِّنِ ﴾ . (النور ٥٤ - العنكبوت ١٨)

فجميع الرّسل إنّما هم حجة الله على الأرض ، يستنير بها كلّ عاقل سليم العقل إذ لا تكليف على من لا سلامة في عقله ، ومن من العالمين يستطيع أن ينكر وجود هذا العدد من الرّسل عبر الزّمان وعبر

المكان خاصّة من بلغه القرآن الكريم الذي قصّ على العالمين من قصصهم الكثير ممّا يصوّر بجلاء المعركة القائمة المستمرة بين الحقّ والباطل، وبين الفضيلة والردّيلة، الفضيلة المتمثلة في الأنبياء والرّسل ومن تبعهم، والردّيلة المتمثلة فيمن كفر بالله وأعرض عن رسالات هؤلاء وجعل إلهه هواه، وهذه قصّة إبراهيم التي مازلنا نعرض بعضها من ملاحظتها تثبت لكلّ ذي بصيرة ألاّ عذر بين يدي الله لأنّه قد تبين الرّشد من الغي، إذ اندثر قوم إبراهيم بعنادهم ولم تتبعهم إلاّ اللّعة، بينما ظلّ ذكر إبراهيم عطرا لأنّه كان مسلما حنيفا ولم يكن من المشركين، فجعل الله في ذريّته النّبوة إلى أن كانت الخاتمة مع حفيده من إسماعيل محمد ﷺ ذاك الذي اختار الله معجزته وجعلها معجزة خالدة لا تبلى مع الزّمن لئلاّ تكون حجة للنّاس على الله، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها.

٤ - إنه الاستعداد إلى دار القرار

وهل يمكن أن تسكت قصّة إبراهيم عليه السّلام في سياقها عن غاية الغايات من حياة الإنسان ألا وهي الحياة الحقّ التي لا فناء بعدها ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(٢٩ العنكبوت ٦٤).

وفي ذلك قال تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(١٦ النحل ١٢٢).

وقال : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

(٢٦ الشعراء ٨٢).

وقال : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ

النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ

يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴾

(الشعراء ٨٩).

وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

(الانعام ٨٤).

إنه خليل الرحمن الأواب المنيب الذي صارع الشرك وقال أسلمت

لرب العالمين ، ومع ذلك فإنه عليه السلام لا يبريء نفسه من الخطأ .

﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(١٢ يوسف ٥٣).

بل يتواضع كل التواضع بين يدي الله ويثبت أنه يطمع أن يغفر

الله عز وجل خطيئته يوم الدين .

نعم إنها التوبة النصوح إلى الله عز وجل ، ولا عجب فإنه كما يقال : سيئات الأبرار حسنات الفجار ، فشفافية إبراهيم وصفاء سريرته لا تدفعانه إلى الغرور بل تحملانه على اتهام النفس بالخطيئة ، فيضرع إلى الله أن يغفر الخطيئة يوم الدين .

إنه يوم الدين وما أدراك ما يوم الدين ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . لمثل هذا فليعمل العاملون ، وليتنافس المتنافسون ، وليتب التائبون ويندموا على ما كسبت الأنفس من الخطايا صغرت أو كبرت .

تلك هي أبرز ثمرات الإقرار بهذا اليوم العظيم ، إنابة مطلقة لله عز وجل ، وحرص متواصل على الامتثال لأوامره والانتهاز عند نواحيه ، وبمثل هذه المعاني السامية تستقيم الحياة على وجه البسيطة لكن لقد غفل الناس اليوم عن هذا اليوم وكفر به من كفر وقالوا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكهم إلا الدهر ، فلم يعرف الناس في ظلّ هذا الفكر سعادة وإنما هي الويلات تلو الويلات حيث يطحن القويّ الضعيف ، وتشتعل الحروب المدمرة لأتفه الأسباب فتأتي على الأخضر واليابس وتفضح أولئك الذين ما يزالون يرفعون بدون حياء لواء الحرية والمساواة والعدالة ، فليعلم الناس جميعا أنه بدون إقرار بيوم الدين لن تكون لا حرية ولا مساواة ولا عدالة في أيّ ركن من أركان المعمورة وإنما هو الاستعباد والاستغلال والظلم .

وماذا بعد غفران الخطيئة التي لا تتم إلا بعد التوبة النصوح؟ إن إبراهيم يرجو من الله ألا يخزيه يوم يبعثون، وأن يجعله من ورثة جنة النعيم، فالناس كما كانوا صنفين كبيرين في دار العمل فإنهم صنفان في دار الجزاء، أصحاب الجنة وأصحاب النار.

أصحاب النار هم أولئك الذين كانوا يكفرون بالله عز وجل كفر شرك أو يكفرون بنعمه وقد ماتوا على تلك الحال فلا قرار لهم إلا عذاب جهنم خالدين فيها أبدا.

وأصحاب الجنة، أو ورثة جنة النعيم كما جاء على لسان إبراهيم، هم أولئك الذين كانوا على ملة إبراهيم حنيفا وما كانوا من المشركين ولا من الكافرين بأنعم الله بل كانوا مسلمين لرب العالمين، يخافون عقابه، ويرجون ثوابه، لا يغفلون عن طاعته آناء الليل وأطراف النهار، وإذا غلبتهم النفس الأمارة بالسوء يتوبون من قريب فتراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا عسى أن يكونوا من المرحومين، وكل رجائهم أن يختم الله بالصالحات أعمالهم. إن أمثال هؤلاء جديرون بأن يكونوا بحق من ورثة جنة النعيم خالدين فيها أبدا، رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه.

المحور الرابع - ابتهالات ابراهيم

الدعاء مخ العبادة

قال تعالى :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(٢ البقرة ١٨٦).

لقد سبق أن علمنا أن إبراهيم أواه حلیم منیب وقد قال ربّه في

حقّه :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
شَاكِرًا لِّلنَّعْمَةِ أَجْتَبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(١٦ النحل ١٢٠ - ١٢١).

كما أنّنا لمسنا في المحاور السابقة بعضا من دعواته لله عزّ وجلّ
عندما أرسى قواعد البيت العتيق وثبت لدينا أن الله عزّ وجلّ
استجاب لدعواته فجعل البلد آمنا ورزق أهله من الثمرات، وبعث
فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة
ويزكيهم ، فسلام على إبراهيم إنّّه من عباد الله المحسنين، وكذلك
يجزي الله المحسنين .

والكلّ يعلم أن الدعاء مخّ العبادة وليست الصلاة في اللّغة إلّا
الدعاء، فليس على المسلم الرّباني إلّا أن يتأسّى بإبراهيم عليه

السلام فيؤمن بالله عز وجل ويستجيب لكل ما جاء في قرآنه وسنة نبيه إن أراد أن يستجيب الله لدعائه، وليست ابتهالات إبراهيم عليه السلام إلا دروسا إيمانية سامية، وجدير بكل مسلم أن يحفظها، وأن يعمل بفحواها، وأن يرددها آناء الليل وأطراف النهار.

١ - في جنات البيت العتيق

قال تعالى :

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴾ (٣٥)

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۖ ﴾ (٣٦)

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ ﴾ (٣٧)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ ﴾ (٣٨)

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۖ ﴾ (٣٩)

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

الْحِسَابُ ﴿ (١٤) إبراهيم ٣٥ - ٤١) .

إنها بلاغة القرآن الكريم التي ليس بعدها بيان تنقل لنا صورة مرئية مسموعة لإبراهيم عليه السلام وهو في جنبات البيت العتيق، أول بيت وضع للناس ليعبد فيه الله بحق، وإنه لجدير أن تسكب فيه العبرات لأنه الموطن الذي لا ترد فيه الدعوات.

وها هو إبراهيم بعد أن فرغ من إقامة القواعد من هذا البيت يتהל إلى الله عز وجل من أعماق قلبه، قلب طافح باليقين بالله، موقن أن العزة لله جميعا، أليس هو الذي أنجاه من النار ولهيها فكانت بردا وسلاما.

ماهي النبرة الأولى ؟ ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ وهل تستقيم الحياة الإجتماعية في بلد ما إذا حرم من الأمن والطمأنينه، لا والله فما أحوج هذا الحرم الذي اختاره الله أسمى موطن للعبادة أن يكون آمنا فيقبل إليه الحجاج من أطراف المعمورة ليدوقوا حلاوة الأمن ولو مرة في العمر، فتنتطلق ألسنتهم بذكر ذلك حال رجوعهم إلى أوطانهم فيعملون على نشر ذلك الأمن في ربوعهم.

وها هي البشرية اليوم تعمل كل ما في وسعها ليتسبب الأمن في مواطنهم فتصطنع لذلك من الأجهزة ما لا يخطر على بال، ولكن لا أمن لأن الصلة مقطوعة بين الناس وبين رب العالمين، وإذا بالجرائم والانتحارات لا تقع تحت إحصاء ولا عد.

نعم إن إبراهيم قد أدرك بما وهبه الله من عقيدة راسخة منذ آلاف السنين أن البلد الذي أقيمت فيه الكعبة الشريفة لن يكون بلدا يرفع لواء الحضارة الإيمانية بحق إلا إذا كان آمنا، وفعلا يستجيب الله عز وجل لدعاء خليله فحتى طيره لا يطارد بل فحتى نباته لا يعضد . . .

أما عن حجاجه فحدث عن الأمن ولا حرج حتى عندما أشرك الناس بقيت للبيت حرمة وبقي فيه الأمن، ذاك أن العربي على شركه يلتقي بمن يبحث عن الثأر منه في كل مكان في جنبات هذا البلد فلا يروعه بله أن يقتله، ذلك أن الله جعل هذا البلد آمنا ، فلتنبه البشرية اليوم عندما ترسي قواعد العمران وهي في ذلك متفنة ألا حضارة بحق إلا إذا كانت البلدان آمنة، ولن تكون آمنة بحق إلا إذا استمدت قوانين التعامل فيها مما جاء في شريعة الإسلام من كليات في هذا الشأن ، ومن بينهما أن جبريل ما يزال يوصي النبي بالجار حتى ظن أنه سيورثه، فأين مثل هذه المعاني مما تتألم البشرية من ويلاته في حواضر العالم مترامية الأطراف حيث يتجرع المواطن من مرارة الفرع ما لا يخطر على بال مما يتفنن الأدباء في تصويره عسى أن يظفروا بشيء من الأمن ولكن يبقى هذا الأمن منهم بعيدا، ذلك أنهم ضلّوا سواء السبيل .

ثم تأتي النبوة الثانية:

﴿ واجنبي وبنيّ أن نعبد الأصنام ربّ إنهنّ أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ .

إنها الأصنام ما تزال تقرّح إبراهيم ، لقد قاسى من ويلات عبّادها الكثير ، فهو بشرّها خبير ، لذلك يسأل ربّه أن يجعل عبادته خالصة لوجهه الكريم وأن يجعل ذلك الوارث منه ، ياله من أب كريم لا يفكر في الخير لنفسه فحسب وإنما يرجو من الله عزّ وجلّ أن يجعل ذريّته أي عمّار البلد الآمن مؤمنين بالله ، مخلصين له الدّين ، بعيدين عمّا يدنس الفطرة ويشوّه ما ينبثق عنها من سلوك ومن عبادة الأصنام مهما كانت هذه الأصنام .

ثمّ يبيّن ما ينجّر عن هذه الأصنام من بلاء ، إنها منبع ضلال كثير من الناس على وجه البسيطة لقد صدق إبراهيم - وهو بذلك خبير - إن الأصنام كانت مصدر ضلال أبيه وقومه الذين حاول بكلّ ما في وسعه أن يهديهم الصراط المستقيم فلم يكن منهم إلّا أن عكفوا على تلكم الأصنام ودافعوا عنها بكلّ ما أوتوا من قوّة إلى أن يسر على الأب رغم حنان الأبوة أن يلقي بولده في النار إرضاء لتلكم الأصنام ، نعم إنها معبودات صمّاء تبلّد عقول عبّادها بل تفقدتهم كل سمات الإنسانية ، إذ كيف لإنسان مفكر مدرك يركع ويسجد عند وثن يدرك

أنه صنعه بيده أو صنعه غيره بيده، ولكنه الضلال يخرج هذا المعبود في ثوب القداسة التي ليس بعدها قداسة.

والبشرية المتحضرة اليوم، وإن أقلعت عن عبادة الأصنام المادية فإنها خضعت لشكل آخر من أشكال الأصنام من أمثال ما جاءت به قرائح البشرية من نظريات أثبت الزمن أنها جوفاء، جدير بها أن تعود لتأمل في دعوة إبراهيم هذه ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام﴾ إذ قد أضلت هذه النظريات الحديثة البشرية أيما إضلال ناهيك أنها أبعدتها عن عبادة الذي لا معبود سواه، سبحانه الذي لا إله إلا إياه.

ولن تكون البشرية من إبراهيم بحق رغم ادعاء عدد وافر منها بذلك إلا إذا تبعته أي وجهت وجهتها للذي فطر السموات والأرض حنيفة لله غير مشركة به، هنالك يكون الناس جميعا إبراهيميين مسلمين لله رب العالمين في كل تصوراتهم، وفي كل عطائهم الحضاري، وبما أن هذا غير وارد اليوم فإن البشرية ليست من إبراهيم في شيء وإنما هي في زمرة من عصي

﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ . وانظر إلى رافة إبراهيم الأواه الحليم فإنه لا يدعو على هؤلاء بالويل والثبور بل يكل أمرهم إلى الواحد الديان عسى أن يلهمهم مرشد أمورهم لأنه هو الغفور الرحيم.

فياهما من نبرتين إيمائيتين تنبني عليهما الحضارة الحقّ فلا حياة في العمران إلا بالأمن . ولا أمن إلا بالإنابة للذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه المرجع والمصير .

ثم تأتي النبرة الثالثة :

﴿ ربّنا إنّنا أسكنّا من ذريّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصّلاة ، فاجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثّمرات لعلّهم يشكرون ﴾ .

إنّ الإيثار الرّاسخ هو الذي دفع إبراهيم إلى إسكان أهله بهذه الرّبوع بمكّة المكرّمة ، إنّها طاعة الله ، إنّها الاستسلام لأمر الله .

ويلاحظ إبراهيم أنّ حياة هذا الوادي لا تقوم على الفلح لأنّه موطن غير ذي زرع لكنّ الله تعالى اختاره من بين جميع ما في الأرض من أماكن وجعله موطناً لبيته المحرّم ، وفي هذا من الدّلالة ما فيه على أنّ الفضل بيد الله يهبه لمن يشاء لأنّه وحده يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء . إنّ مقاييس البشر المادّيّة تقول عندما تطوف في جبال مكّة الجرداء ، لا سبيل إلاّ إلى حياة نكدة في مثل هذه الرّبوع ، خاصّة إذا قورنت بأرض فلسطين ، أو ببلاد ما بين النّهرين ، أو بضفاف النيل تلکم الأماكن التي عرفها إبراهيم ، وتبين ما فيها من خصب ورخاء .

إنّ إبراهيم لم يخطر بباله ولو للحظة أن يعترض على الإرادة الإلهيّة ،

وفي ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر وإنما لم يذكر إلا فضل الله عليه وعلى ذريته حيث جعل الله إقامتهم عند بيت الله الحرام . وأيّ نعمة تعادل هذه النعمة، إنهم سيكونون سدنة البيت وحفاظه، وكما قال عبد المطلب فيما بعد وهو على الشرك : (للبيت ربّ يحميه) . لذلك لم يكن من إبراهيم إلا أن استحضر الغرض من هذه الإقامة ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وأيّ غاية في الحياة أسمى من هذه (إقامة الصلاة) بمعنى التوجّه الكامل للواحد الديّان بكل أصناف العبادة .

فالموطن - وإن كان غير ذي زرع - فإنّه تحفّ به بركات القداسة التي لا تعادلها في الحياة بركات (بيتك)، إنّ هذه الإقامة هل كانت عند بيت عظيم من عظماء الدّنيا معرّض بأن يزول أو تزول عنه النّعمة لأتفه الأسباب؟ أم هل كانت عند أمة متأصلة في العراقة؟ وكلّ عراقة مهما طال ماها الفناء، كلاً إنّها إقامة حيث لا حياة، لا نبات، ولا لحىوان ولا لأنسان، سبحان الله، إنّها إقامة كل المؤشرات المادّية فيها تدلّ على هلاك الزّوجة والولد، ولكنّه إبراهيم على يقين من أنّ ربّه ما كان ليفرط فيه، ولا في هذا الفرع من ذريته من إسماعيل .

إنّها إقامة عند بيت الله، عند البيت الذي اختاره الله عزّ وجلّ ليعبد فيه بحق، عند الكعبة الشّريفة التي شاءت رحمة الله أن تفضلها

تفضيلاً، عند المسجد الحرام الذي يحيط بجنبات هذه الكعبة الشريفة، . في ربوع مكة المكرمة بلد الله الحرام، إنها القداسة الإلهية ترفل في هذا المحيط بين الأرض والسماء، ينهل منها بكل سر كل من آمن بالله رباً، فيطوف ويعكف، ويصلي، ويدعو، ويركع، ويسجد وهو على يقين أن الحركة التعبديّة هناك تعادل مائة ألف حركة تعبديّة في غير هذا المكان من جميع أطراف العالم.

نعم صدق إبراهيم ، لم يسكن هذه الذرية لتفلاح الأرض فتغنم، أو لتاجر فتربح، أو لترعى السوائم فتكسب، أو لتصنع المكان فتشري، لا إن كلّ ذلك كان ثانوياً في روع إبراهيم، إنه أسكنهم هناك ليقموا الصلوة، وهو يعلم أن العبادة الخالصة لله تعالى هي سرّ النّجاح الحقيقيّ في الدّنيا والآخرة، لأنّ كلّ الخيرات المادّيّة تفنى وتفارق صاحبها حال فراق الدّنيا سوى ما قدّمت يده من عبادة مخلصه وعلى رأسها الصلوة والتّضرّع لله.

ألم يأنّ للبشريّة اليوم أن تنبّه إلى هذه الحقيقة الخالدة؟ وهي أن سرّ الازدهار العمرانيّ إنّما يكمن في ذوبان سكّان البلاد في العبادة لله عزّ وجلّ فيسوق الله إليها أرزاقها رغداً من كلّ مكان بل يفجر تلك الأرض بخيرات لم تكن تخطر على بال إلا أنّ حضارة اليوم غفلت عن هذه المعاني، ولم تفكر إلا في الشراء المادّيّ فيسرّها الله من اكتشاف

النواميس التي تزيدها ثراء على ثراء ولكن أين السعادة الحقّ، إنّه النكد الذي ليس بعده نكد، ذلك أنّ المعادلة مختلفة لأنّ الإنسان ليس مجرد طين بل الجانب الأسمى فيه هو الآخر جانب الرّوح .

وعلى هذا الأساس فعلا درج العمران في الحضارة الإسلامية النابضة حيث إنك ترى أنّ بيت الله هو قلب كلّ عمران، ومنه ينطلق كلّ خير، وإليه يؤوب النّاس في كلّ حين لماذا ؟ ﴿ لِيَقِيمُوا الصَّلَاة ﴾ أي ليقبوا على صلة وثيقة دائمة برّب العالمين فينعكس ذلك على حياتهم فينتهون عن الفحشاء والمنكر ولا يأتون في نواديهم ومدارسهم ومتاجرهم ومصانعهم إلّا بما يرضي الرّب الذي يقفون بين يديه خمس مرّات في اليوم مصليّين منين لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غنيّ وفقير بل كلّهم سواسية كأسنان المشط، بل كلّهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضهم بعضا، بل كلّهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى .

نعم صدق الله حيث يقول إنّ إبراهيم كان أمة، إذا كلّ من اقتدى به واهتدى لن يكون نصيبه إلّا الفلاح في الدّارين دار العمل ودار الجزاء .

ثم بعد أن امثل إبراهيم عن وعي ويقين لأمر الله أسكن من الذّريّة عند بيت الله المحرّم ليقبوا الصّلابة بماذا يدعو الله لهم ؟

﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾.

سبحانك ياربّ ما أسمى هذا الطلب إنّه يرجو من الله أن يجعل هذه الذريّة محبوبه عند الناس، ولن يكون ذلك إلا إذا كانت أواصر الرابطة روحية إيمانية.

وفعلا كان الأذان في الناس بالحجّ، واستجاب الله للدّعاء، وأقبل الناس على تلکم الربّوع من كلّ فج عميق، لا يشدّهم إليها طمع لا في الزّرع ولا في الضّرّع، ولا فيما في باطن الأرض، ولا جشع في الغنم، . وإنّما يحركهم أمر واحد هو هوى في الفؤاد مع رغبة في العطاء لا في الأخذ.

ومن شدّة الشّوق لتلكم الربّوع يعلم الإنسان أن اللّسان يعجز عن التّعبير عمّا يجيش في الفؤاد، وكذا يكبو القلم إذا سعى أن يعبر عمّا في الجنان من لوعة الهوى والشّوق، إنّها دعوة إبراهيم ظلّت ترفرف على ذلك المكان حتى في أحلك ظروفه عندما عبثت به الوثنيّة وسيطر عليه الشّرك.

وفعلا لقد كان رجاء إبراهيم فريدا من نوعه إذ قد ألهمه ربّه فأحب أن يكون هذا المكان ملتقى عالمياً لا لجنس دون جنس، أو لجماعة دون جماعة، وإنّما للناس جميعا ﴿ من الناس ﴾، ولم يردّه لقاء مادياً شكلياً تتعانق فيه الأجساد وتتنافر القلوب، بل أرادّه ملتقى روحياً تتعانق فيه القلوب لأنّه نابع عن هوى في الفؤاد، لينعكس ذلك على

الأجساد فتتعانق بحقّ بما جعل الله فيها من عقول، فلا تفكّر إلا في ما يعود بالنفع على البلاد والعباد.

ما أبعد نظرة إبراهيم عليه السّلام حيث رجا من الله عزّ وجلّ أن يكون مسكن ذريته منطلق كلّ حضارة ومرجعها، إذ ما عسى أن تفعل هذه الأئدة العاشقة عندما تلتقي هناك فتبعث الأنس في أهل البلاد، إنّها تقتبس منهم ما تفتقده من معاني السموّ فتشره في ربوعها عندما ترجع، وتمكّنهم من جميع خبراتها فتسكبها هناك، وإذا بذريّة إبراهيم - وهم عند بيت الله المحّرم بواد غير ذي زرع - يتعايشون بدون عناء مع البشريّة الموزعة في أطراف الأرض، وذلك في كلّ لحظة من لحظات حياتهم إذ لم يربط إبراهيم ذلك بزمن محدّد، وكذا كانت العمرة في كل زمان إلى جانب الحجّ المحدّد بالزمان.

وفعلا فقد هوت الأئدة إلى تلکم الذرية من كل أطراف المعمورة حيث يتمازج العربيّ مع الصّينيّ واليابانيّ والأوروبيّ والإفريقيّ والأمريكيّ والأستراليّ ربّهم واحد، وقبلتهم واحدة، ودينهم واحد ﴿أسلمت لربّ العالمين﴾.

ثمّ بعد ذلك لم يغفل إبراهيم عن المعاش إذ لا تستقيم الحياة الروحية إلا بتلبية رغبات الجسد لأنّ الإسلام يراعي هذه المعادلة البشريّة، فللروح نصيب، وللجسد نصيب، وللعقل نصيب، ذاك هو الإنسان المسلم.

﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾

ياله من أب حليم، يطيع ويدعو، وهو يعلم أن سر الاستجابة للذّعاء يكمن في الطّاعة الخالصة، وكيف تستقيم حياة الذّرية وحياة ضيوف الرحمن؟ إنهم في حاجة إلى طعام، وهو يعلم أن الشّراب مضمون، تلك بركات إسماعيل الذي فجّر الله من تحت قدميه الصّغيرتين الماء الزّلال من بطن جبل أخشب هو أولى بأن يدمي قدميه من أن ينبع له بما في بطنه من ماء زلال.

وهل يكفي الماء بدون طعام؟ كلاً، لذلك يعلم إبراهيم البشريّة أن تطلب الرّزق من الله - والمطالب الماديّة مشروعة في الإسلام - ولم يحدّد إبراهيم نوعاً من أنواع الرّزق، وإنّما كان الطّلب مطلقاً (من الثّمرات)، وإن غلب الثمر على حمل الشّجر، فإنّه بتجاوزه إلى الدّلالة على فائدة كلّ شيء مادّيّ وغير مادّيّ إذ يقال خصّني فلان بثمره قلبه أي بمودّته، وفي حديث المبايعه : ﴿فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه﴾.

مرّة أخرى يتجلّى بعد نظر إبراهيم عليه السّلام فالثمرات في النّهاية تشمل كلّ عطاء البشريّة في أطراف العالم، فهو يرجو من الله عزّ وجلّ أن يرزق هذه الذّرية من كلّ هذه الثّمرات على جميع أصنافها، لأنّ الإنسان في حاجة إلى كلّ تلكم الثّمرات مادّيّها ومعنويّها.

وفعلاً قد انصبّت تلكم الثّمرات في ربوع بيت الله الحرام، وما تزال

تنصبّ بفضل الله وبركات دعوات إبراهيم عليه السّلام، فخيرات العالم اليوم كلّها منصّبة هناك، ولا أراني مضطراً بأن أعدّد، فياليت هذه البقيّة من الذريّة تستفيق، وياليت أصحاب هذه الثمرات يستفيقون ليتعانقوا جميعاً وينقذوا العالم ممّا يتخبّط فيه من ويلات ناجمة عن ماذا؟

ناجمة عن الغفلة عن الغاية التي حدّدها إبراهيم إذ جعل دعواته مشروطة بأمرين هما إقامة الصّلاة، و ﴿لعلّهم يشكرون﴾ .

فالقاعدة حينئذ واضحة وضوح الشّمس إذا كانت الصّلاة وكان الشكر من أهل البلاد ومن الوافدين كان الفضل العميم، وقد تحقّق ذلك زمن إبراهيم وزمن محمّد ﷺ ومن استنّ بسنّته من الرّعيّل الأوّل من المسلمين فكانت مكّة المكرّمة وما حولها من عالم إسلامي منطلق كلّ إشعاع حضاريّ حتى قالوا كلّ الطرق تؤدّي إلى مكّة بعد أن كانوا يقولون إلى روما .

وعندما أدبر الشكر وانعدمت الصّلاة أو تكاد بقيت الثمرات، وأقبل أصحاب الأفتدة الهاوية لكن أين الإشعاع ؟ لكلّ قاريء أن يجيب بنفسه .

وتأتي النّبرة الأخيرة في هذا السّياق طافحة بعدد من الدّعوات الصّالحات بعد عديد من الإقرارات .

الإقرار الأول : ﴿ ربنا إنك تعلم ما تخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

سبحان الذي يعلم السرّ وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

نعم إنّ مثل هذا الاعتقاد هو الذي يضمن وحده سلامة القول وسلامة العمل ، ولن يكون للبشريّة رقيّ بحقّ إلا إذا آمن كلّ عناصرها أن سرّهم عند الله مكشوف ، وأنهم لن ينفلت واحد منهم من يد العدالة الإلهيّة التي لا يغفل ميزانها عن مقدار ذرّة أو مقدار حبة من خردل ، ولن يتأتّى للإنسان أن يجور مع ربه ومع نفسه ومع بني جنسه إلا عندما يغفل عن هذه الحقيقة ، وذاك هو الغالب على عمّار العالم ، وهم على أبواب القرن الواحد والعشرين ميلاديّاً ، كما يقولون ، وفي مطلع العقد الثاني من القرن الخامس عشر للهجرة .

الإقرار الثاني : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربّي لسميع الدّعاء ﴾ .

إنّ الحديث بالنعمة والاعتراف بفضل الله ، ذاك أنّه لم يجرمه من الذريّة رغم تقدم السنّ ، والإنسان يدرك حقيقة النعمة بعد طول الحرمان أكثر ممّا لو رزق الذريّة من بداية الحياة .

ويعترف إبراهيم بين يدي الله أنّ هذه الذريّة كغيرها من النعم هبة

من الله، فالواجب أن تقابل بالحمد والشكر، وذلك بتسخيرها في طاعة الله، وهنيئاً لإبراهيم إذ جعل الله كلاً من هذين الولدين نبياً.
كما يعلم إبراهيم البشرية ألا تتوقف عن الدعاء لله وألا تقنط من رحمته وذلك بالتأكد على أن الله سميع الدعاء.
الدّعاوات :

- ﴿ ربّ اجعلني مقيم الصّلاة ومن ذريّتي ﴾ .

إنّ الإلحاح على هذه العبادة - الصّلاة - لأنّ إبراهيم يعلم أنّها محور العبادات جميعاً لأنّها تواكب الإنسان في كلّ حين، خاصة بالمسلك الذي حدّده الإسلام مع محمّد عليه السّلام، نعم إنّها الصّلة المستمرة بالله عزّ وجلّ.

ولا يستأثر بإقامة الصّلاة لنفسه، وإنّما يرجو أن تكون هذه الإقامة سمة بارزة في ذريّته ليكونوا أهلاً بحقّ لأنعم الله حيث أسكنهم عند بيته الحرام ومعلوم لدى كلّ مسلم أنّ إقامة الصّلاة لا تعني مجرد الحركات، وإنّما المقصود بها أدائها بكلّ مستلزماتها، من طهارة ماديّة ومعنويّة، وخشوع على أحسن الوجوه، وبذلك يكون لها الأثر الطيّب في الحياة، وترفع في الآخرة الدّرجات.
- ﴿ ربّنا وتقبّل دعاء ﴾ .

ياله من نبي كريم يسأل ربّه أن يجعل دعاءه مقبولا إذ ما قيمة

الدَّعَاء إِذَا كَانَ مُرَدُّوهُ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يُلْهَجُونَ بِالْدَّعَاءِ، وَمَا أَقَلَّ
عَدَدَ الَّذِينَ يَسْتَجَابُ لَهُمْ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾

(٣٤ سبأ ١٣).

إنَّه حَسَنُ الْقَبُولِ يَجْعَلُ إِبْرَاهِيمَ دَائِمًا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، الْخَوْفُ
مِنْ أَنْ تَرُدَّ دَعْوَتُهُ فَيَكُونَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَالرَّجَاءُ فِي أَنْ
يَتَقَبَّلَ اللَّهُ دَعْوَاتِهِ فَيَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ فِي الدَّارَيْنِ دَارِ الْعَمَلِ وَدَارِ
الْجَزَاءِ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وَبَعْدَ طَلَبِ قَبُولِ الدَّعَاءِ يَسْأَلُ اللَّهُ الْمَغْفِرَةَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
مَتَى؟ نَعَمْ فِي أَصْعَبِ الْأَحْوَالِ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ، وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ قَبْلِ
مَا لِلْإِيمَانِ بِهَذَا الْيَوْمِ مِنْ أَثَرٍ إِيْجَابِيٍّ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَمَا لِلْكَفْرِ بِهِ مِنْ
أَثَرٍ سَلْبِيٍّ فِي حَيَاتِهِمْ.

ذَلِكَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ فِي نَبْرَاتِهِ الدَّعَائِيَّةِ الْأَرْبَعِ فِي هَذَا السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ
الْكَرِيمِ مِنْ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ جَاءَتْ شَامِلَةً لِأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
مِنْ أُمُورِ الدِّينِ : وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (عَقِيدَةُ) اجْعَلْنِي
مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي (عِبَادَةُ) رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ (عِبَادَةُ) تَقْبَلْ
دُعَاءَ (عِبَادَةُ)

مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا : اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا (سِرَّ الْعِمْرَانِ) اجْعَلْ أَفْئِدَةً
مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ (عِمْرَانِ) وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ (عِمْرَانِ).

من أمور الآخرة : اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .
وليس للمسلم إلا أن يتضرّع إلى الله عزّ وجل : ﴿ربّنا أصلح لنا
ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ،
وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ﴾ .

٢ - إقرارات إبراهيم ودعواته

هذا ما جاء في سورة إبراهيم من دعوات إبراهيم ، وقد وردت له
دعوات أخرى في سورة الشعراء حيث يقول تعالى :

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ
﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

(٢٦ الشعراء ٧٥ - ٨٩) .

سَلِيمٍ ﴿

تأتي هذه الدّعوات الصّالحات بعد أن جاهر قومه بعداوتهم
الصّريحة لجميع معبوداتهم ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾
ويستثني بكلّ وضوح معبوده الحقّ ذاكرة بعض صفاته .

وفي ذلك تتجلى عناصر العقيدة الصحيحة :

توحيد الله ربّ العالمين : ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ بالعبادة لأنّه هو وحده الأهل بأن يعبد لأنّه ربّ العالمين وخالقها والمتصرّف في ما فيها ومن فيها .

الإقرار بتصرّفه للبشر : في أدقّ شؤون حياتهم على الأرض :
﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إنّهُ الخالق الذي لا تلتمس الهداية إلاّ من عنده فيمنّ بها على من يشاء ويحرم منها من يشاء .
﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيُسْقِينِ﴾ وهل تستقيم حياة الإنسان إن هو أمسك رزقه وجعل الماء غورا، إنّهُ العناية ثمّ الفناء .
﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أليس الإنسان الذي يتكبر ويعاند معرّضا للمصائب؟ ومن بينها مصيبة المرض بأن يختلّ توازن بنيته الجسديّة أو العقليّة أو الرّوحيّة . فمن عند من يستدرّ الشفاء! إنّهُ لا يستدر إلاّ من الله لأنّه هو الذي بيده الشّفاء،

﴿وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ قتل الإنسان ما أكفره! كيف تحدّثه نفسه بالتكبر على ربّه، وهو يوقن أنّ حياته بين أجلين لا طائل له عليهما بل لا يعرف حتى موعدهما، إنّهما الولادة والموت .
ذاك هو ربّ إبراهيم الذي أراد أن يهدي قومه إليه، إنّهُ ربّ العالمين يطعم ويسقي ويشفي ويميت ويحيي . ألم بأن هؤلاء أن تخشع

قلوبهم لذكره ذاك ما أراد أن يثيره في هولاء القوم، وقد جاء الكلام بصيغة المفرد المتكلم، وإن كان الأمر عاماً، ذاك ليذكر هؤلاء المعاندين أنه لا حول ولا قوة لهم إلا بالله، بينما معبوداتهم لا تقدر حتى لنفسها على شيء.

الإيمان بالبعث والحساب بعد الموت وبفضل الله وتقدير العبد :

﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾

يا لها من عقيدة زكية ينادي إليها إبراهيم تربط المخلوق بالخالق، فتجعله يوحدّه في ذاته وصفاته وأفعاله، ويدرك أنه إليه المرجع والمصير، نعم إن هذا المخلوق وإن كان إبراهيم الخليل فإنه موسوم بسمة الخطيئة لأنه مخلوق تتابه لحظات ضعف فيحيد ويخطيء، فمن يغفر الخطيئة؟ إنه الغفور الرحيم الذي يتقبل من عباده الذين يتوبون من قريب، ذلك هو فضل الله رغم تقصير المخلوق وغفلته، المهتم في عدم الإصرار، والإنابة إلى الله، والإقرار بالخطيئة والندم عليها، وإبداها بالحسنة لأن الحسنات يذهبن السيئات.

بعد هذا البيان الإيماني تنبع ست دعوات من صميم الفؤاد خالصة لله عز وجل يستدرّ فيها إبراهيم رحمت البر الرحيم وهو على يقين أنه يتوجه إلى السميع العليم ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾.

١ - ﴿ربّ هب لي حكماً﴾ : ليس الحكم إلا العلم والتفقه أو

الحكمة وكلاهما يدلان على حسن اختيار الداعي وكيف لا يحسن إبراهيم الاختيار .

نعم إن الإنسان في أشد الحاجة إلى العلم والتفقه ليتمكن من أن يشق حياته على بيئة خالصة إذا كان هذا العلم وهذا التفقه ربانين نابعين من صميم العقيدة فإن الحياة بفضلها تكون حياة إيمانية بحق مفضية إلى مرضاة رب العالمين ، وإلى الفوز بجنت النعيم .

نعم إن الإنسان كذلك في أشد الحاجة إلى الحكمة ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ (٢ البقرة ٢٦٩) .
ذلك أنه بهذه الحكمة يستطيع أن يميز بين القيم الصحيحة، وبين ما تزخره عقول التائهين من البشر من زيف يبدو كأنه غاية في الصلاح وهو غاية في الفساد والطلّاح ، والحكيم كما لا يخفى هو الذي ينزل جميع الأمور منازلها في إطار منهج رباني يستمد موازينه من وحي الله قبل كل شيء .

٢ - ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ : نعم إن إبراهيم ليخشى رغم ما وهبه الله من قوة الإيمان أن يحرفه تيار البيئة التي ظلّ ساعيا إلى تحويلها إلى منهج الصلاح ، وفي ذلك عبرة لجميع الدعاة ، يجب ألاّ يطمئنوا إلى ما وصلوا إليه ، وإنما يجب أن يتّهموا أنفسهم بالتقصير مهما بذلوا من جهد لأن ذلك قليل في جنب الله مهما كثر ، كذلك لا

يجب ان يتصوروا أنهم أدركوا القمّة بالمقارنة مع ما يرون أمامهم من زيف لدى الآخرين .

لذلك لا يطمئن إبراهيم لنفسه طرفة عين ، ويسأل الله تعالى ضمناً أن يجعله من الصّالحين لأنّه لا يمكن أن يلحق بالصّالحين إلا إذا كان صالحاً ، والصّلاح إنّما هو الاستقامة والسّلامة من العيب ، وذلك في إطار المنهج الربّانيّ الذي لا توزن الأعمال الحقّ إلاّ به .

وما أحوج الأمتّة إلى الصّلاح والصّالحين إذ بوجودهم تستنير الحياة ، وتأمّل في فضل الله كيف يرسل الأنبياء والرّسل ، وهم صفوة الصّالحين ، ليخرجوا العالمين من الظّلمات إلى النّور .

٣ - ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾

إنّها محبة الخير للعالمين ، إذ لم يكن إبراهيم أنانياً وإنّما يرجو من الله أن يكون له امتداد عبر الزّمن في الآخرين ، ويوضّح هذا المعنى ما عرضنا فيما سبق من دعوة إبراهيم أن يبعث رسولا في الآخرين ، والأساس في الرّسالة أو الدّعوة الإيمانيّة في أنّهما تقومان على الصّدق ، ولم يكن جميع الأنبياء والرّسل إلا رموزا للصّدق ، ولتعليم البشريّة الصّدق الخالص مهما تصوّر الإنسان صعوبة ما ينجرّ عنه من نتائج .

لقد صدق إبراهيم قومه، ولم يخن الأمانة حتى وهو بينى له المنجنيق ويلقى في النار، ولقد صدق محمد ﷺ قومه حتى عندما تأمروا على اغتياله، فلم يكن من الله عز وجل إلا أن أنجى خليله، وحفظ المصطفى، وجعل من بين أيدي المتأمرين سداً ومن خلفهم سداً فأغشاهم فهو لا يبصرون، وكذلك كل الرسل والأنبياء.

المهم أن يدرك الناس جميعاً ألا نجاة بحق إلا في الصدق مع الله، ومع النفس، ومع الآخرين، وإن هذا الصدق لمطلب عزيز في عالم صار يعتبر الأسلامة إلا في الزيف.

٤ - ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ :

لقد سبق أن بينّا ما للتصدق باليوم الآخر من أثر إيجابي في سلوك المسلمين، وها هو إبراهيم يسأل الله أن يورثه جنة النعيم، وأي قرار أحسن من هذا القرار، وليعلمن الإنسان كما علم إبراهيم من قبل أن هذا الطلب إنما يترتب على الإيمان الراسخ والعمل الصالح في هذه الحياة الدنيا.

٥ - ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ :

لم يكن هذا الاستغفار إلا عن موعدة وعدها إياه

﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ ﴾ (٩ التوبة ١١٤).

وبهذا تثبت الحنيفية السمحة أن الرابطة الحق إنما هي رابطة

العقيدة، فلا استغفار لأهل الضلال وإن كانوا أقرب الناس رحماً للمستغفر، إنها البراءة (تبراً منه) ، وما أسلمه منهج ؟ لو عمل الناس على تطبيقه فلا يتولون إلا أولياء الله كما يتبين لهم في الظاهر، ويتبرؤون ممن يجاهرون بالشرك أو الإلحاد أو المعاصي .
وليست الولاية إلا أن تحب في الله والله ، وليست البراءة إلا أن تبغض في الله والله .

وهذا إبراهيم الأواه الحليم يلقن المسلمين درساً إيمانياً راقياً فيتبرأ من أبيه لما يتقن أنه عدو لله فتوقف المودة وينقطع الاستغفار ولو كان هذا الشخص الوالد .

يالها من درجة إيمانية عالية، إنه يسحب الاستغفار الذي جاءت روايته في الدعاء في هذا السياق إخلاصاً لله تعالى .

وفعلاً لو تعامل الناس بصدق بمبدأ الولاية والبراءة لاستقامت لهم الحياة ولأذعن العصاة للجماعة المسلمة التي لا تريد من وراء هذه البراءة إلا ردع هؤلاء عن غيهم حتى ينتبهوا عندما يحرمون من حقوقهم في المجتمع فيندموا على ما ارتبكوا من جرائم ويتوبوا إلى الله رب العالمين، فيرجعوا إلى المحيط الإسلامي ليحتضنهم من جديد، ويتعايشوا فيه بأمن وسلام يؤدّون واجباتهم، وينعمون بما لهم من حقوق .

ومن أراد أن يتبين قيمة أثر البراءة في النفوس فليرجع إلى قصة
الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك، كعب بن مالك وهلال بن أمية
ومرارة بن الربيع أولئك الذين صدقوا رسول الله في أنهم تخلفوا بدون
عذر فتبرأ الرسول والمسلمون منهم وعزلوهم عن المجتمع الإيماني
إلى أن تاب الله عليهم

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَآرِحِبَتِمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾

(٩ التوبة ١١٨).

٦ - ﴿ وَلَا تَخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

إن إبراهيم رغم ما قدم من الأعمال الصالحة فإنه لا يتألى على الله أي
لا يتصور أنه يقينا من الفائزين لذلك يطلب من الله ألا يخزيه يوم
البعث، وأخزاه بمعنى أهانة وفضحه وأخجله، أي هوان أفضع من
هوان يوم البعث! هذا اليوم الذي بين إبراهيم بعضا مما فيه من هول
إذ كل ما ينفع في الدنيا لا يمكن أن ينفع هناك مادامت كل نفس بما
كسبت رهينة، ولا ينفع إلا من أتى الله بقلب سليم، وسلامة القلب

تتمثل في إخلاصه لله في جميع ما قَدّم من اعتقاد وقول وعمل ، وما أحوج الناس في كلّ زمان ومكان إلى سلامة القلب ، ذلك أنه عليه مدار جميع الأعمال إذ إنما الأعمال بالنيات ولكلّ امرئ ما نوى ، وإذا سلمت السرائر تصلح الأعمال فيكون الإنتفاع بها في هذه الحياة الدّنيا ، ويكون النّفع الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم .

تلك هي ستّ دعوات لم تشمل في هذا المرّة أمرا من أمور المادّة بل تمحّضت لما تحتاج إليه الرّوح لتكون في درجة عالية في الشّفافيّة والصفاء فيما يؤتى الإنسان من الحكمة يستطيع بها أن يجتاز محنة الحياة بسلام فيشتاق إلى الارتقاء إلى مصافّ الصّالحين ، فيعمل بعملهم صدقا وإخلاصا لا يريد أن تكون حكرا عليه ويرجو أن تشيع في الآخرين ، وبالتالي يمكن أن يرتقي بفضل الله إلى درجات ورثة جنّة النّعيم ، ومن هذه سماته لا يمكن أن يضيع الله إيمانه ولن يخزيه يوم يخزي أولئك الذي كابروا وعاندوا وكانوا في براءة المسلمين ، بل يجعله الله من أوليائه الذين

﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

ذلك هو إبراهيم عليه السّلام لقد كان صادقا مع الله في جميع تحركاته ، نعم لقد صدق حيث قال :

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ

أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (١٩ مريم ٤٨).

إنه اعتزل قومه وكان شاكرا لأنعم الله فلم يكن ليشقى بتضرعه لله ، بل ارتقى إلى أرفع درجات السعادة ، إنه ذهب إلى ربه فهداه ووهب له من الصالحين وبشره بغلام حليم ، إنه بتحركه هذا علم البشرية دروسا راقية في التوكل ، أليس هو القائل ؟

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٦٠ المتحنة ٤).

والتوكل كما لا يخفى يتمثل في أن يأتي الإنسان الأسباب المشروعة ثم مع ذلك وبعد ذلك يفوض الأمر إلى الله ، وكذا فعل إبراهيم لم يركن إلى الظلم والظالمين إلى أن ثارت ثائرة الظلم وتصدت له فصمد إلى آخر لحظة دون أن يتزحزح عن المبدأ قيد أنملة فأيده ربه بنصر منه ، وكتب لدعوته الرسوخ في موطن آخر عند بيته المحرم ، وهنالك كان التضرع ، وكان الدعاء ، وكان ترسيخ جميع مبادئ العقيدة السمحة ، تلکم المبادئ التي أحييت بعد آلاف السنين مع دعوة خاتم المرسلين ﷺ ، ومع كل ذلك استمر إبراهيم يسأل الله ألا يجعله فتنة للذين كفروا وأن يغفر له

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(٦٠ المتحنة ٥)

وكذا استمرّ خلفه في الدّعاء، وهم على يقين أنّ الباطل مهما صال
لا بد أن يختفي

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(١٧ الاسراء ٨١)

ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا وأن يغفر لهم الذّنوب، ذاك أنّ الإنسان
مهما اجتهد فإنّه خطّاء وخير الخطّائين التّوّابون، ولن تنفع التّوبة
إلا إذا تقبّل الله الدّعاء، وتجاوز عن السيّئات لأنّه هو العزيز أي
القادر على الفعل الحكيم فيما يمضي من تدبير.

فسلام ثم سلام ثم سلام على إبراهيم إنّه من عباد الله المحسنين.

الخاتمة :

لقد حرصنا في هذه العجالة - يا طالب الاستقامة - على أن نتعاشق في رحاب خليل الرحمن فقبسنا من تجربته الإيمانية الصادقة بعض الأنوار السنّية عسى أن نستنير بها في هذه الحياة الدّنيا، وعند مماتنا، وفي قبورنا، وفي محشرنا يوم تبيضّ وجوه، وتسودّ وجوه.

نعم إنّه أسوة حسنة بحقّ لأنّه بشر رسول جمع خصال الخير فكان أقرب ما يكون إلى الكمال وكيف لا يكون هكذا وقد شهد أنّ ربّه كان به حفيّا، وقال أسلمت لربّ العالمين طالما أمره ربّه بذلك.

ولقد تمثّل هذا الاستسلام لله صريحا في مرحلة الرّفص حيث تصدّى لأبيه وقومه يثبت لهم بكلّ ما أوتي من قوّة أنّهم في ضلال مبين، ولم يثنه عن عزمه إصرارهم على عبادة الأصنام، وتحولّ من القول إلى الفعل إلى أن بلغ القمة في التّضحية وكانت النار عليه بردا وسلاما.

وكانت الهجرة، ويسّر الله مرحلة الإيجاب وإذا به في رحاب البيت العتيق الذي أرسى قواعده مع ولده إسماعيل، تنطلق على يديه الحنيفيّة السّميحة، ويسأل أن تكون في ذريته فكانت ويسأل الله أن يبعث رسولا في هذه الذّريّة فكان، وإذا بنور الإسلام ينبثق من

جديد مع حفيده سيدنا محمد ﷺ ، ويشاء الله أن تكون الرسالة التي تقوم عليها القيامة .

ذاك هو سرّ الإخلاص لله تعالى ، وذاك هو شأن المخلصين ، لا يتوقّفون عن السّعي لإعلاء كلمة الله ، ولا عن التّضرّع إلى الواحد الدّيان ، أن يغفر الذّنوب ، وأن يختم بالصّالحات الأعمال ، وأن يصلح أمر الدّين والدّنيا والآخرة .

اللّهم صلّ وسلّم على خليلك إبراهيم أفضل صلاة وأزكى تسليم برحمتك يا أرحم الرّاحمين .

وهذه أيّها الأخ الكريم بعض الدّروس قبل أن نختم . نوردها بين يديك عسى أن نكون من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه :

- ١ - العقيدة الرّاسخة نية وقول وعمل .
- ٢ - استحضار عظمة الله عزّ وجلّ من خلال أسمائه الحسنی وما عظم وما دقّ من مخلوقاته .
- ٣ - الرّفص المطلق لأيّ معبود سوى الله مهما كلّف ذلك من ثمن .
- ٤ - الاستسلام المطلق لله والتّوكّل عليه .
- ٥ - الحرص على التحلّي بأوامر الإسلام والتخلّي عن نواهيه .
- ٦ - الدّعوة إلى الله آناء اللّيل وأطراف النّهار :

- اعتماد التدرّج في الإقناع .
- الانطلاق بالحجّة القولية .
- اعتماد تصوّر المخاطبين .
- الصّبر على عناد المخاطبين .
- التّحدّي القولي .
- التّحوّل إلى الفعل .
- التّحدّي الصّارخ بالفعل .
- لا يأس حتّى النفس الأخير لأنّ الدّاعية مكلف بالتّبلغ فحسب .

٧ - التّواضع المطلق لله عزّ وجلّ واجتناب الغرور مهما عظم حجم العمل .

٨ - الإخلاص الكامل لله عزّ وجلّ .

٩ - التّوبة إلى الله والإكثار من الاستغفار .

١٠ - الدّعاء إلى الله تعالى بقبول النّيّة والقول والعمل

وحسن الختام .

هذا ما يسرّ الله جمعه من بركات إبراهيم عليه السّلام ، ومن أراد المزيد فليعد إلى الكتاب العزيز الذي لا تنتهي عجائبه ، ولا يبلى مع مرور الزّمن ، وليعيش من خلاله مع إبراهيم عليه السّلام ومع جميع

إخوانه من المصطفين الأخيار، فإنهم أحسن من يقتدى بهم لمن أراد
التجاة في الدارين .

وليس لنا في الختام إلا أن نقول مع إبراهيم :
﴿ربّ اجعلني مقيم الصّلاة ومن ذريّتي، ربّنا وتقبّل دعاء،
ربّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ .
سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد
لله ربّ العالمين .

تنبيه :

لقد استلهمنا جلّ ما جاء في هذه الخواطر من الكتاب العزيز كما
ذكرنا ذلك في المقدّمة .

وقد استفدنا من عديد من كتب التّفسير، في طليعتها في ظلال
القرآن لسيد قطب، كما نظرنا في عديد من كتب العقيدة قديمها
وحديثها .

ونستسمح القارئ الكريم في بعض ما نقلناه من بعض النّصوص
دون أن نحيل على مصادرها ذلك أنّا اعتبرنا أنّ اختيار المرء جزء
من كيانه، ولم نرد أن نثقل الناشئة بمثل هذه الحالات الأكاديمية،
والكتاب موجّه للنّاشئة قبل كلّ شيء، والله الموفّق إلى الصّواب،
إنّه نعم المجيب، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

الفهرس

٣	 الإهداء
٧	 المقدمة
١٣	 تمهيد : هل تعرف إبراهيم عليه السلام
١٧	 المحور الأول . إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام
١٧	 ١ - من الفطرة السليمة إلى الإدراك الواعي
٤٠	 ٢ - من القول الى الفعل
٤١	 ١ - تصرف إبراهيم مع أبيه
٥١	 ب - تصرف إبراهيم مع قومه
٥٧	 ج - تصرف إبراهيم مع أبيه وقومه
٧١	 المحور الثاني . إبراهيم إمام المسلمين
٧١	 ١ - ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا
٧٧	 ٢ - إبراهيم يرسي كلمة الإسلام في بلاد الله الحرام
١٠٢	 ٣ - إنها الحنيفية السمحة
١٠٥	 المحور الثالث . من ثمرات العقيدة الراسخة
١٠٦	 ١ - عظمة الله عز وجل في تصريف الكون
١٠٩	 ٢ - عظمة الله وفضله يتجلىان في الإنسان
١١٤	 ٣ - حاجة الإنسان الى الوحي
١٢٢	 ٤ - إنه الإستعداد إلى دار القرار
١٢٧	 المحور الرابع . إبتهالات إبراهيم
١٢٨	 ١ - في جنبات البيت العتيق
١٤٤	 ٢ - إقرارات إبراهيم ودعواته
١٥٥	 الخاتمة

رقم الإيداع ٩٤ / ٣

المطابع العالمية - روي - سلطنة عمان

